

ثروت باطه

هلاک من الزیام



هَارِبٌ مِنَ الْأَيَّامِ

شروت أباطة

هارب من الأيام

الفائزة بجائزة الدولة سنة ١٩٥٨ - ١٩٥٩

الناشر
مكتبة مصيبي
٣ شارع كاسل سدي - النجلا

دار مصيبي للطباعة
٢٧ شارع كاسل سدي - النجلا

الشيخ محمد

إلى أبي البرهيم وسوقى الزبائن

الحسنی بری فتویٰ علیٰ ارفع من ذوالکبر
 الازلی علیٰ بکری. فہذا علیٰ بکری اضعف و احسنہ
 علیٰ حکما ج. ۶. ۷.

۱۳۶۲

هارب من الأيام

بقلم عميد الأدب العربي الدكتور طه حسين

اعترف بأن عنوان هذه القصة وقع من نفسى موقع الغرابة فليس الهرب من الأيام شيئاً يتاح للأحياء مهما يفعلوا إلا أن يفرضوا على أنفسهم الموت أو يفرضوا عليها الفعلة المطلقة لمطبنة .

فالإنسان الحى أسير الزمن يدخل فيه منذ تشيع الحياة ولا يخرج منه إلا حين تنقطع الأسباب بينه وبين الحياة أو حين تضطر نفسه إلى الذهول الشامل الذى يصرفه عن كل شيء ويقطع الصلة أو يخيل إلى صاحبه أنه يقطع الصلة بينه وبين الزمان والمكان وما يتعاقب فيهما من الأحداث وما يلم بالأحياء والأشياء بينهما من الخطوب .

وانى أقدر الهارب من الأيام فى هذه القصة هو هذا العمدة الذى جعله الكاتب محورا تدور الأحداث حوله والذى انتهى فى آخر القصة إلى أن يترك منصبه ويهجر القرية التى كان يدبر أمرها تدبيرا متصلا أو موقوتا . ولكن هذا العمدة لم يهرب من الأيام وإنما هرب من منصبه وهرب من القرية التى لم يحسن القيام عليها . . ورحم الله أبا العلاء الذى أنبأنا بالألماء المهرب

من الزمان للكائن الحى ما دام حيا وذلك فى بيته الرائع الخالد :

ولو ظار جبريل بتيبة عمره

من الدهر ما استطاع الخروج من الدهر

واكبر الخلق أن هذا العنوان إنما راق المؤلف لأن فيه شيئا من الغرابة والغموض يروعانه هو أولا ويروعان كثيرا من قرائه بعد ذلك وإن كان شيء منهما لم يرعنى . ولو أنى أملت العنوان لانصرفت عن قراءة القصة ولحزمت نفسى متعة تيبة حقا فقد أتيت « للأستاذ ثروت أباطة » حظ حسن جدا من الإجابة مكنه من أن يفرض عليك المضى فى القصة إذا بدأتها حتى تبلغ غايتها بل مكنه من أن يفرض علىّ أنا قراءتها مرتين لم أباعد بينهما فى الزمان لأنى وجدت فيها روحا عذبا يجرى فى الفاظها وأسلوبها وترتيب الأحداث فيها واستخراج بعض هذه الأحداث من بعض فى غير تكلف ولا تصنع ودون أن يعنف القارئ أو يثير ألامه ضروبا من المشكلات التى تقفه عن القراءة هنا أو هناك

وإنما القارئ يمضى فى قراءته مضيا يسيرا يوحى إليه بأن الكاتب نفسه قد مضى فى كتابة قصته مضيا يسيرا أيضا ثم يجد فيها شيئا من عناء أو هو قد أوجد العناء كل العناء . ولكنه استأثر به ولم يظهر القارئ على شيء منه شأن الكاتب الملبوع الذى يجد ويكد ويشقى بالجد والكد فيما بينه وبين نفسه ليقدم إلى قارئه آخر الأهرأثرا أدبيا ينعم بقراءته ودون أن يحس فى هذا النعيم جدا أو كذا أو شقاء .

وما أظن الواقعيين بين كتابنا من الشباب يرضون عن هذه القصة كل الرضى فهي لا تصور الواقع كما يصورونه وكما يحبون أن يصوره غيرهم من الذين يعرضون لكتابة القصة خاصة أو للإنشاء الأدبي بوجه عام .

فهي تعرض عليك قرية هادئة مطهنة ينعم أغنيائها بالعيش ويشقى فقراؤها بالعيش أيضا ولكنهم قد تعبدوا شقاءهم والفقر فهم لا يشكون منه ولا يظهرون الضيق به قد عرفوا أن من طبيعة الحياة في قريتهم أن ينعم الأغنياء ويبتس الفقراء وهم لا يريدون ولا يستطيعون أن ينكروا طبيعة الأشياء ولا أن يضيقوا بما قسم الله بينهم من الحظ .

واسم القرية نفسه يوحي بهذا فهي قرية السلام .

وأنت ترى أول ما ترى عمدة القرية وقد أفاق من نومه آخر الليل وأول النهار وهو عجل يحرص على شيئين أشد الحرص أولهما أن يصلى صلاة الفجر قبل أن يفوته وقتها وهو من أجل ذلك يتعجل الخادم لتحضر له وضوءه قبل أن تنوته الصلاة وقد ازدحمت في نفسه أمور الدين وأمور الدنيا ما أباح الله منها وما حرم يرى هذا كله طبيعيا لا غرابة فيه فهو يجرى أثناء الضوء لسائته بهذه الادعية التي يرددتها المسلمون حين يتوضأون ولكنه يقطع هذه الادعية بين حين وحين بالسؤال عن زوجة ومن ابنته وعن صالح هذا البائس الذي وعده برقوة من الدجاج لانه أصلح الأمر بينه وبين زوجة التي كانت مقاضبة له .

أما الأمر الثاني الذي يحرص عليه أشد الحرص فهو إرضاء حاجته إلى الإفطار وهو يسأل عما سيقدم إليه إذا أتم صلاته من

الألوان والخادم تنبئه بذلك فى شئ من التفصيل كأنها تريد أن
تثير نهمه وكأنها تستحضر ما سيصيبها من الطعام إذا فرغ العبد
من إفطاره .

ويستقبل طعامه تحمله إليه ابنته ذرية ذات الجمال الرائع
والحسن البارع والرجل فرح بطعامه مبهور بجمال ابنته لا يخفى
حرصه على أن يجد لهذه الفتاة النضرة زوجا غنيا موفورا ولكن
صوتا يرتفع بالدعاء من وراء النافذة هو صوت كمال هذا البائس
الذى يتكفف الناس ويصيب طعامه إذا أصبح كل يوم فى بيت
العبد وهو البطل الأول من أبطال هذه القصة تتكشف عنه
الأحداث فجأة فهو ذليل يدعو للناس جميعا بالثراء والسعادة وطول
العمر ليظفر منهم بالعطاء القليل حينما وبالزجر والانتهاز أحيانا
وبالسخرية والازدراء دائما وهو حاقد أشد الحقد على هؤلاء
الأغنياء الذين يعيشون فى السعة وينعمون بطيبات الحياة على
حين لا يجد هو ما يقيم أوده إلا بالجهد والمشقة وابتذال ماء الوجه
والإلحاح فى مسألة الكرام والبخلاء .

وهو يطوف بالقرية منذ يصبح إلى أن يمسي لا عمل له
إلا أن يستجدى من جهة وينبئ أهل القرية بما يجرى فيها من
أحداث الخير والشر ومن شئون الموت والزواج خاصة . وهو
لا يصيب صدقة من أحد إلا استنزل عليه الخير بلسانه وتمنى
بقلبه أن تغوله الفوائد وأن تصب عليه الخطوب . وهو يشجع
بأنه على حظ من القوة فى جسمه ومن الذكاء فى عقله وبأنه
أجدر بالغنى والسعة من هؤلاء الأغنياء الذين يتكففهم والذين
يستاثرون من دونه بالنعيم .

كذلك يقضى نهاره فإذا جنه الليل مضى إلى جماعة من الرفاق يجتمعون عند أحدهم على الحشيش فجلس بينهم خادما يتملقهم ويأخذ بحظه ما هم فيه . وهو لا يقبل كل صباح على بيت العمدة ليفطر فحسب بل ليستمتع كذلك من فتاة البيت بنظرة يرفعها إليها ونظرة أخرى تلقى الفتاة إليه . فهو لهذه الفتاة محب وهو بها كلف مشغوف ولكنه يائس وأين هو منها وأين هي منه . إنما مكانه منها مكانه من الشمس لا يستطيع أن يرقى إليها ولا تستطيع الشمس أن تنزل إليه .

وكما صور الكاتب هذا الشخص الأول من أشخاص القصة تصويرا دقيقا كل الدقة ، رائعا كل الروعة فهو قد صور سائر اشخاص القصة على هذا النحو من الدقة والتحقيق . فهذا العمدة الذى يأمر فى بيته ويأمر فى قريته وينهى أيضا يهأبه الناس جميعا ويشعر هو بهيبته له وإسقاطهم منه . هذا العمدة نفسه خائف وجل من المأمور يرهبه ويتملقه ويتقى شره ويتغنى رضاه أكثر مما يعمل معه أهل القرية .

وهو يتبل الرشوة من الناس ويغريهم بتقديمها إليه ولكنه هو أيضا يرشو المأمور ويحس إغراء المأمور له بالرشوة . فهو يأخذ من دونه ويعطى من فوقه وهو بذلك راض وإليه مطمئن وهو يدبر أمور القرية على هذا النحو من الإخاء والعطاء يخيف ويخاف ويأخذ الرشوة ويعطيها . وكل ما يعرض عليك الكاتب من صور للأشخاص والأشياء دقيق متقن على هذا النحو .

فالقصة من هذه الناحية لا تعرض عليك إلا صورة واقعة

يعرفها كل من عرف القرى فى بلادنا ولا سيما فى بعض الأوقات
وفى بعض الظروف .

ولكن القصة لا تليث أن ترقى عن الواقع شيئا . فهذا
البائس المتكفف الذى أنله البؤس وأكل قلبه الحقد لا يتمنى شيئا
كما يتمنى أن يصبح غنيا موفورا ورث حياته البائسة هذه عن
أبيه وورثها أبوه من جده ولكنه يطمح فى أن يكون خيرا من أبيه
وجده وهو لا يجد الوسائل إلى الغنى إلا أن يصبح غاتكا يقتل
ويسرق ويروع الأهلين ، وهو لا يسأل الله إلا شيئا واحدا وهو
أن يتيح له أداة من أدوات الفتك .

وهو يلتبس الوسيلة إلى هذه الأداة فلا يجدها حتى يظفر
بها ذات ليلة فى مجلسه ذاك مع رفاهه أولئك على الحشيش فبين
هؤلاء الرفاق غاتك معروف وهو منصور الدفراوى الذى قتل
غاتكا مثله منذ أيام بأمر من كبير يعيش فى قرية مجاورة . ورفاهه
يسألونه فى ليلتهم تلك كيف قتل صاحبه وكيف أفلت من النيابة
وكيف أخفى سلاحه ويعرفونه منه بعد إلحاح فى السؤال أنه
أخفى السلاح فى قبر أخته هناك فى تلك المقبرة التى يعرفونها
ولا يسمع كمال هذا الحديث حتى يمتلئ قلبه رضى وأملا .

وفى القرية مأذون صوره الكاتب فبرع فى تصويره فهو
جماع للمال حريص عليه يؤثر التفريق بين الأزواج على الجمع
بينهم لأنه إذا فرق بين الزوجين أخذ أجر الطلاق ثم أتبع له أن
يزوج الرجل وإن يزوج المرأة فيأخذ على كل زواج اجرا .
فالطلاق أريح له وأجدى عليه من الزواج . إذن هو لا يجمع
بالزواج بين اثنين إلا تمنى أن يكون يوم التفريق بينهما قريبا .

وكل ما وقع إليه شيء من مال أضافه إلى ما ادخر ثم هو لا يأمن على ماله الخزائن أو المصارف وإنما يحمله دائما في منطقة يديرها حول جسمه من دون ثيابه . يحس هو ثقلها ويجد دفئها وينعم بجوارها المتصل .

وقد خرج الماذون ذات مساء ليفرق بين زوجين في قرية غير بعيدة وعاد إلى قريته وقد أظلم الليل ولكنه يسمع في الطريق صوتاً مروعاً يدعو إلى الوقوف فإذا هم أن يمشي روعه الصوت مرة أخرى فوقف وقد ملأه الفزع ولا يكاد يقف حتى يحس برد السلاح على قفاه ويسمع الصوت يدعو إلى أن يعطى ما معه من المال . فإذا هم أن يمتنع خيره الصوت بين المال والحياة فيختار الحياة آخر الأمر وينزل عن ماله ويعود إلى أهله مسلوب المال والصحة والعقل جميعاً .

ويتصل هذا النوع من الإرهاب مرة ومرة حتى تمتلئ قرية السلام رعداً وذعراً ولا يجد العمدة سبيلاً إلى استكشاف هذا الشيطان الذي روع القرية بعد أمنها فأرق ليلها ونقص نهارها وأفسد أمرها كله . والمأمور يطالب العمدة بالمجرم وينذره بالوقوف إن لم يدل عليه .

وإذا كان العمدة لا يعرف هذا المجرم فالتقارىء يعرفه حق المعرفة فهو كمال الذى يتكفف الناس في النهار ويسلب الأغنياء أموالهم إذا كان الليل . وقد جلس كمال إلى رفاته يتداولون بينهم الحشيش ذات ليلة ويتحدثون في أمر القرية وما ألم بها من الهول ولكن مجلسهم ذاك لا ينقضى حتى يكون كمال قد اقتنع رفاته

الأربعة بأن يكونوا مثله قطاعا للطريق يسلبون الأغنياء ويروعون
الأمنين ويتخذونه لهم رئيسا .

وهم يفعلون بعد أن أقسموا على المصحف ليكتن السرا
وليسمعن للرئيس وليطيعن أمره في غير تردد ولا جدال .

وقد وضع كمال لهذه العصبة قاعدة غريبة كل الغرامة تنأى
بالقصة عن الواقع كل النأى فهم تأخذ من الأغنياء لترد على
الفقراء أقل ما تأخذ وتستأثر بسائره تتخذ الخير وألبر وسيلة
إلى الإجرام والإثم . تريد أن ترضى الفقراء على حساب الأغنياء
في ظاهر الأمر . وتريد أن تعز أولئك وتسلب هؤلاء في حقيقة
الأمر . ولا تلبث العصبة أن تفرض الأتاوة على كل قنطار من
القطن يباع وعلى كل ما يمكن أن تفرض عليه الأتاوة ولا تتردد
في قتل من لا يستجيب لها من الذين تفرض عليهم أتاواتها .
وقد قتلت بالفعل مرة قملات القرية فزعا وهلعاً حتى أذعن
المالكون لأمرها . وكان العمدة نفسه بين المذعنين وإن أخفى
تأديته للأتاوة محافظة على ظاهر من احترام هيبة الحكم
والسلطان .

وجعلت اللسنة تنطلق بالثناء على جماعة الخير هذه والدعاء
لها في الإعلان وتكتم القلوب بغضها ومقتها واستعداد الله عليها
في أعماق الضمائر . وأصبح كمال غنيا موقورا قد ظفر بإرضاء
حاجته إلى الفنى وإرضاء نفسه من إزالال الأغنياء الذين كان
يتحرق حقدا عليهم وحسدا لهم .

ولكن فردا واحدا من أهل القرية يأبى أن يذعن لأمر المجرمين
ويزمع أن يخرج قناطيره القليلة من القطن إلى المدينة سرا في

ظلمة الليل فبيعه ويعود بثمنه آمنا ولكن العصابة فطنت له فتربصت له فى الطريق وقتلته . وكان العمدة وأحد الخفراء عاشرين من المحطة فسمعا صوت السلاح واستخفيا ولكنها استطاعا أن يريا شخص القاتل ونبا العمدة المحققين بما رأى وشهد الخفير وقبض على القاتل واقتضح بعض أمر الجماعة فآزمع كمال أن يروع العمدة حتى ينكر ما أثبت فى التحقيق . ووجد الوسيلة إلى ترويعه فاختطف ابنته تلك التى أحبها واستيأس منها وهو لا يزال لها محبا ومنها يائسا فهو لا يريد بها شرا وهو لا يطمع منها فى شيء ولكنه يأمر الذين كانوا يصحبون الفتاة حين اختطف أن ينيئوا أباهما بأن ابنته سترد عليه آمنة يوم يعدل أمام النيابة عما أثبت فى محضر التحقيق .

ويلجأ العمدة بعد خطوب إلى ذلك الكبير الشرير الذى يقيم فى قرية مجاورة والذى اتصلت المودة بينه وبين المجرمين ليرد عليه ابنته فيعده بذلك . ويتقدم إلى أصدقائه فى أن يردوا الفتاة على أبيها لأنه محتاج إليه فى الانتخابات المقبلة . ويأبى الأصدقاء إشفاقا على أنفسهم وعلى زميلهم ذلك السجين ويخرجون وقد انتفض الود بينهم وبين صديقهم ذلك الكبير الشرير . فهم قد أضرموا قتله من ليلتهم وهو قد أمر رجاله بقتلهم من ليلتهم أيضا . وتكون موقعة بين الجماعة وبين رجال الكبير الشرير فتقتل الجماعة وترد الفتاة على أبيها ويعود الأمن إلى القرية وتنتهى قصة الروع . فتنتهى معها قصة أخرى لحب لم نشر إليه .

فى القرية فتى من أبناء الأغنياء قد أتم التعليم العالى

أو كاد يتمه وأبوه صديق للعمدة وبين الفتى والفتاة حب قديم يرجع إلى الطفولة وقد طلب الفتى إلى أبيه أن يخطب على العمدة ابنته فرغض العمدة الخطبة لأنه يريد لابنته زوجا أوسع ثراء وأعظم جاها من ابن صديقه . ولكن قصة الرّوع تنتهى فتنتهى معها قصة الحب لأن العمدة يقبل الفتى صهرا له ويرشحه مكانه عمدة للقرية ويزعم السفر إلى القاهرة هاربا من القرية ومما لقي فيها من روع لا هاربا من الأيام كما ظن الكاتب .

وقد لخصت تلك القصة فى إطالة شديدة ، وفى إيجاز أشد منها لم أجد بدا من الإطالة لأبين لك أن القصة واقعية فى تفصيلها نائية فى جملتها وفى غايتها عن الواقع . كل التفصيلات يعرفها الناس ويرون أشباهها لها فى حياة بعض القرى أحيانا ولكن هذه الجماعة التى تأتلف لتأخذ من الأغنياء وترد على الفقراء ليست من واقع الحياة فى شيء . لبس من واقع الحياة أن يتخذ الناس الإثم والنكر وسيلة إلى الخير وأن يتخذوا هذا الخير نفسه وهو إعطاء الفقراء وسيلة إلى اقتراف الجرائم والآثام .

كل هذا قد ابتكره خيال الكاتب السلب ابتكارا وليس عليه بذلك بأس ، فمن حق الكاتب أن يستجيب لخياله حتى حين ينأى به عن الواقع شيئا . ولكن ليس للكاتب أن ينسى أن قصته تنشر على الناس فيقرأها منهم الراشدون والقاصرون ويقرأها منهم العقلاء والأغرار وقد ينخدع بعض هؤلاء عن بعض ما يقرأون . وقد يصانف من نفوسهم مواطن الضعف وقد يورطهم ذلك فى بعض ما يسوؤهم ويسوء الناس بهم . والكاتب مسئول أمام

دُميريه أولا وإمام الجماعة التي يكتب لها ثمانية . فليس له بد من أن يستحضر تبعته حين يكتب وحين ينشر أو يذيع . ولست أرى من أين اشتقت خيال الكاتب لهذه الصورة صورة العصبة الآئمة التي تتخذ الإثم وسيلة إلى البر وتتخذ البر نفسه وسيلة إلى الإثم .

يمكن أن يكون قد قرأ كثيرا أو قليلا من أخبار الصعاليك في حياة الجاهلية وفي بعض الأمصار الغربية بعد الإسلام . أولئك الذين كانت تضيق بهم سبل العيش ويكرهون النظام الاجتماعي الذي لا يتيح لهم تحقيق ما يطمحون إليه فيخرجون على النظام ويستبيحون لأنفسهم النهب والسلب والقتل أحيانا ويعيشون في عزلة عن الجماعة لا يدنون منها إلا ليروعوها ويرزأوها في أموالها ثم ينأون عنها ليعيشوا في عزلتهم أجوادا كراما يؤمنون بالخائف الذي تنقطع به الطريق ويطعمون الجائع ويعطون المحروم .

يرون هذا كله كملا لمروعتهم ومحققا لرجولتهم ويفاخرون بهذا كله في شعرهم الذي حفظت منه كتب الأدب أطرافا لا بأس بها .

ولكن عصر الصعاليك قد انقضى فنحن لا نعيش في البداية ولا في القرن الأول للهجرة وإنما نعيش في الحاضرة ونعيش في القرن الرابع عشر للهجرة وما ينبغي لعصر الصعاليك أن يعود وهو لم يعد والحمد لله . أ يكون الأستاذ قد قرأ شيئا من أخبار هؤلاء الصعاليك الذين يأخذون من الأغنياء ليردوا على الفقراء .

ولا يغضب الكاتب فقد كنت أحب له أن يجد صنعة أخرى غير الأخذ من الأغنياء والرد على الفقراء لأن لهذه الصيغة مكانها الملحوظ في فرض الزكاة وتحبيب الصدقة إلى الناس .

وأنا بعد هذا معجب بمنهج الكاتب في قصته ومذهبه في هذه الكتابة باللغة الفصيحة النقية التي لا تشق على قارئ مهما يكن. حظه من الثقافة وهي لا تنأى مع ذلك عن اللغة التي تليق بالأدباء ولا تنحط بهم إلى الإسفاف والابتذال .

وأنا واثق بأن كاتبنا الشاب قد بدأ طريقا طويلة أصابه شيء كثير من النجاح في أولها وما أشك في أن حظه من النجاح والتوفيق سيزداد ويعظم كلما مضى إلى أمام .:

د. طه حسين

- ١ -

فى فرحة غامرة واستبشار بيوم جديد ، وفى تكاسل رضى
وبطء هادىء ، تحرك الشيخ زيدان أبو راجع عمدة قرية السلام ،
ونزل عن سريره لينادى الخادمة :

— يا فاطمة .

وسرعان ما رجع النداء بصوت الخادمة :

— نعم يا سيدى .

وصاح الشيخ فى تظاهر بالغضب يصحبه هدوء مستريح :

— يا بنت هاتى ماء الوضوء ، الفجر سيفوتنى !

وفى هذه المرة رجع النداء بالخادمة نفسها تحمل إبريقا
وطستا ، وأخذ العمدة يتوضأ والخادمة تصب الماء ، ولكن العمدة
لم يطق أن يتوضأ فقط ، وإنما هو — على عادته — يسأل الخادمة
عن أفراد البيت فردا فردا ، فتختلط الفاظ الوضوء بالفاظ
الأسئلة :

— بسم الله الرحمن الرحيم ، نويت فرض الوضوء . . . أين

ستك ؟

فتجيب الخادمة وهى تصب الماء :

— نزلت عند الفرن .

— اللهم اجعلنى أمسك كتابى بيمينى ... وابن مستك
درية ؟

— تعد لك الفطور .

— اللهم ولا تجعلنى من أهل اليسار ، وماذا عندكم اليوم
فى الفطور ؟

— عندنا يا سيدى ما يرضيك إن شاء الله ، عندنا فول
وقشدة وعسل ، الخير كثير والحمد لله .

— اللهم ثبت قدمى اليمنى على الصراط المستقيم ، الحمد
له ، هذا شئ عظيم . أسأل عنى أحد اليوم ؟
— لا .

— ألم يحضر صالح أبو سعد الله فراخا ؟

— يا سيدى إننا ما زلنا فى الفجر .

فيجيب العمدة فى شبه غيظ :

— ولكنه مدين يا فاطمة .. الدين يا بنتى .. اينسى أحد
دينه ؟

وتسأله فاطمة ذاهلة :

— وهل اقترض صالح منك يا سيدى ؟

فيجيب العمدة وهو ينزل أكمام جلبابه بعد أن أتم وضوءه :
— نعم .

وتسأل فاطمة وهى لا تزال فى ذهولها :

— هل اقترض منك فراخا يا سيدى ؟

ويطلق العمدة ضحكة صغيرة ساخرة من غفلة خادمته ،
ثم يقول وهو يثبت قلنسوته على رأسه :

ب يا مغفلة أرايت أحدا يقترض فراخا من العمدة ؟

— انا الاخرى اتمعجب يا سيدى !

— لقد حكمت له فى قضية امس فاقسم ان يحضر لى فراخا اليوم ... اليوم نجرا ، وها هو ذا الفجر يولى وهو لم يجيء .
 كم انت ثرثرة يا فاطمة ! الفجر سيفوتنى . الله اكبر . . الله اكبر . . . أصلى الصبح ركعتين فرضا حاضرا لله العلى العظيم . . الله اكبر .

وتبركت فاطمة العمدة يقيم الصلاة ، وخرجت هى لتجدد البيت وكأنها هو آلة زرّ إدارتها هو نداء العمدة « يا فاطمة » .
 فالسيدة الكبيرة تعد الفرن للعيش ، والسيدة الصغيرة تعد الفطور للأب ، وإن كلا من السيدتين لفرحة غاية الفرح بهذا العمل الذى تقوم به ، وإن كلا منهما لتصرخ بأعلى صوت لها ، فكلما ارتفع الصوت كان العمل الذى تقوم به ضحّا يحتاج إلى مجهود كبير ، وعمل كثير ، وصوت جهير ، وسمى حديث ، وكرّ وفرّ .

والعمدة فرح بهذه الأصوات التى تتبعث إلى حجرته ، فكلما ارتفع الضجيج ازدادت أهمية العمدة فى بيته ... وإلا فمن أجل من تقوم هذه القيامة ؟ ومن أجل من يعد العيش والفطور ، ويمطو الصراخ ويحث السعى ويكر ويفر ؟ أليس كل هذا من أجله هو ؟ رجل البيت وعدة البلد على رغم كل سن ورمح يمكن أن يتعرض له ، وينتهى العمدة من صلاته ، ويرتفع صوته فى شبه غضب ولكن فى هدوء تاما كما كان ينادى فاطمة ، ولكن — دون

أن يحس — خالجت الصوت نبرة من حنان وحب لا يطيق الأب
كتماها حين ينادى ابنته :

— يا درية .:

وتجيب الابنة في فرح ولكن في تظاهر بالعمل :

— حالا يا أبى .

وما هي إلا لحظات حتى تدخل درية حاملة طعام أبيها ،
ويستقبلها الأب في عطف بالغ ...

— ما هذا الجمال يا بنت ؟ من أين تزدينه كل يوم ؟

وتجيب درية في حُجل فرحان :

— طبعاً يا أبى ... إن لم تشهد لى أنت فمن يشهد ؟

ولم يكن العمدة كاذباً في هذه المرة ، فقد كانت درية
جميلة حقيقة ، فهي ببضاء صافية اللون ، إلا من حمرة وردية
تخالط بياضها بمقدار ما يجعل جمالها حياً متوثباً ، وهي ذات
شعر ذهبي منسرح في موجات ناعمة معبرة ، وإنها لتشجع
هذه العريضة من شعرها فهي لا تكبح جماحه يمتد أو شريط ،
وإنما تتركه على هواه فيلتوى حيث يطيب له أن يلتوى ويسيل
حين يطيب له أن يسيل ، وهو على الحالين جميل رائع الجمال ،
وإن لها جبهة طاب للشعر أن يأخذ مكاناً كبيراً منها فأخذ دون
رادع ، ولم يترك إلا ومضة ضيقة يتبعها حاجبان مرسومان
في دقة رائعة ، يعلوان عيني خضراوين ينبعث منهما نور فيه
ذكاء لماع وجمال أسر ، يعقبهما فم ما هو بالصغير ولا هو
بالكبير ، وإنما هو شفتان فيهما غلظة رقيقة ، تزيدهما جمالا
تلك النحلة التي تصل الشفة العليا بالأنف الصغير ذي الأرنبة



الموثبة . والوجه فى مجمله يكاد يستدير لولا ذلك الذقن الصغير الذى أبى إلا أن ينفر نفورا منعه الجبال أن يشتط ، تتوسط خدوها الأيمن تلك النونة الصغيرة التى تزداد وضوحا عندما تضحك درية ، وكم كانت تضحك درية . كل هذا الجمل بعلو رقبة تلعاء تفضى إلى صدر ينهد إلى باكر الشباب ، حيران بين الظهور الواضح والاستخفاء الخجلان ، ودرية فارعة الطول هيفاء غيداء ، موثبة إلى الفرح سريعة إلى الضحك ، تستعجل الأيام والأشخاص والأشياء ، لا تطيق أن ترى الأيام تمضى مكتملة جميعا ، تتمنى لو أن النهار أومض ثم أعقبه آخر . ثم هى تكلم الناس جميعا فلا يشعرون أنها مغرورة بجمالها هذا ، وإنما هى تغمرهم بفيض من حنان فيحسون وكأن درية يهيمها من أمرهم ما يهم أصدقائهم الأتربين . . لم تكن درية تستثنى من عطفها هذا شخصا أو شيئا ، نعم فإن من الناس أشياء ، وهل كان كمال إلا شيئا ؟ حتى هذا الشيء كانت درية تبذل له من كريم عطفها ما جعله يحس أن له وجودا ولا وجود له ، أو أن له كيانا ولا كيان له . . . لقد كان العمدة محقا إذن حين فرح بابنته عندما قدمت إليه بالفتور فى باكر الصباح ، وكان محقا فى تدليلها ، فإنه هو لا شأن له بتربيتها فما كان يفهم فى أصول التربية إلا أن يقول ما يراه ، وهو يرى ابنته جميلة غاية الجمال ، ويرى الناس من حوله وحولها يحبونها . ولا يهم العمدة إن كان حب الناس لدرية مبعثه أنه عمدة أو أنها تستحق هذا الحب ، إنما كل شأنه أنهم يحبونها . ولو أن درية تركت لتدليل أبيها لكانت الطامة الكبرى ، ولنفقدت هذا الحب الذى يحبوها به الناس . . . لم يكن تدليل أبيها

وحده هو قوام أخلاقها ، وإنما كانت أمها من ورائها تشتد حين ترى لين الأب مائعا ، وتقسو حين ترى البنية تنحرف عما تريده لها الأم .

أفطر العمدة في يومه هذا ، وهم بأن يفسر ثياب نومه فيخرج إلى الناس ، حين سمع صوتا يعلو بجانب شبكه . ولم يسأل من ذاك فقد عرف الصوت وصاحبه ... كان ذاك هو كمال أبو منصور ذلك الشيء الذي ينطلق مع الفجر يلتبس رزقه بالدعاء للناس ، وما هو بالشيخ العجوز الذي يقعده الكبر ، ولا بالمرضى المقعد الذي تحتجزه العلة ، ولا هو بالعاطل المتبطل الذي يفقره العجز ، وإنما هو شاب في ريعان الفتوة مكتمل الجسم وموفور الصحة . وما له لا يكون وهو على كل مائدة واجد زاده ! وهو — بعد — صاحب صنعة تجمع بين نقیضین ، فهو رجل الأحزان والسعادة ، وهو نجم المائم والفرح ، وهو النافق عند الفراق الذي لا لقاء بعده في الدنيا ، وهو البشير بلقاء يرجى فيه الاتصال ... إنه عمود الوفيات في قريته ، فما لاقى إنسان ربه إلا كان كمال هو ناقل نبأ هذا اللقاء إلى أهل القرية ، حتى يبادروا إليه القيلم بواجب العزاء ورد الجميل السابق ، ومساندة أهل الذاهب ، الحزين منهم والمتظاهر بالحزن .

وما لا قى إنسان زوجته إلا كان كمال أبو منصور هو الزفردة ... زغرودة الرجاء التي تنطلق مبشرة باللقاء ، على حب كان هذا اللقاء أو على طمع في مال أو جاه ، أو كان على ظروف اقتضت فتحكمت فكان الزواج ... لا شأن لكمال

بشيء من هذا ، وإنما كل شأنه أن يعمنم بالوفاة أو الزواج
 فينبإ إلى طبلته يعلقها إلى رقبته ويمسك بمصناه الحيزران
 الغليظة بعض الشيء ، ويطوف بالقرية . ولن يسمع أهل
 القرية نغمة حزينة أو فرحة ، وإنما هي دقات تصاب بها الطبلية
 فتطلق لها صوتا ضخما يصيب بدوره آذان الأمنيين من قرية
 السلام . نعم لقد كان كمال أبو منصور طبالا ... فهو إذن
 ليس متبطلا . ولكن قرية السلام قرية لا تزيد ، ولن تجد
 بالقرية ملاقيا لربه أو لعروسة في كل يوم . وقد تتباعد الأيام
 بين كل لقاء ولقاء ، ولكن مواعيت الغذاء لا تتباعد ، والبرد
 يأتي في موعده المعلوم . وكمال يعتقد أن الكرامة كل الكرامة
 هي أن يحصل على قوت يومه ليس يعنيه أى سبيل يسلكه
 إلى هذا القوت . فما البأس به لو أنه طاف بالأغنياء من قريته
 يطلب أن يعوضوه خيرا عما يفوته عليه عدم انتظام الوفاة
 أو الزواج ؟ ولا بأس عليه ما دام قد فكر في الأغنياء أن يكون
 في مقدمتهم عمدة القرية وعميدها ، لا بأس عليه نعم ... ولكن
 أكان عدم البأس وحده هو الذى ساق كمالا إلى موقفه هذا ،
 أم أن هناك سببا آخر ؟ .. وبك يا كمال ! ماذا تراه يكون
 السبب ؟ .. حذار أن تفكر .. حذار أن تهمس نفسك ولو إلى
 نفسك .. ولكن لتقل الحق ، وما ضرك أن يقال وهو مجرد
 أحلام ؟ وهل تملك يا مسكين إلا هذه الأحلام ! ؟ .. نعم إن
 كمالا ليقصد إلى بيت العمدة لينال من بر العمدة ، وليفتتح
 يومه بنظرة كريمة طيبة متفضلة تلقىها إليه درية مع ما تلقىه
 إليه من طعام ... وهو لا يطمع في غير تلك النظرة ، وإنه

ليعتدها كرما منها يتخاذل إزاءه كل كرم يلقاه من أى كريم ،
 وإنه ليعتدها زاد الدنيا الذى به يعيش إلى أن تتحقق له آمال
 وأحلام . وكـم فكر فى هذه النظرة إذا ما خلا بمفارته ! وكـم
 وقفت هذه النظرة حائلا دون افكاره العاتية أن تنال فى ذهنه !
 ولكنه مع هذا لا يطيق الصبر عليها ... لا بأس إذن بكمال أن
 يقف دون الشباك فى باكر الصباح داعيا إلى الله :

— أن يطبل عمرك يا حضرة للعمدة ... ويبقيك لنا ...
 يا رب .

ويجيب العمدة فى فرح مبتسم ، سعيدا أنه مقصد يدعى له
 ويسعى إليه .

— خبيك الله يا ولد يا كمال ... يا بنى الفجر حاضر لا يزال
 ... الا تمام يا ابن الملاعين ؟

ويجيب كمال فى تظاهر بالعبط والسذاجة السعيدة بهذه
 المداعبة :

— أطال الله عمرك يا حضرة العمدة ، ولا أرانا فيك سوءا
 أبدا ... والله صحوت وجئت إليك لأنى استبشر بوجهك يا حضرة
 العمدة .

— تعنى أنك تريد أن تجد مأثبا بعد أن تشوئنى ؟
 — العفو يا حضرة العمدة ، إنما وجهك كله أنراخ .. اللهم
 أطل عمرك يا رب أنت وستى درية ... الأميرة المؤدبة ...
 ويسارع بالاستدراك :

— وستى الحاجة .. يا رب ..
 — طيب .. طيب .. انتظر حتى تخضر لك فاطمة لتقطر ..

ويجب كمال بالدعاء مترسلا ، ويترك موقفه من الشباك ويذهب إلى الباب الخلفى لينتظر ما سيجود به العمدة . وتمر به درية فيسارع منتهزا الفرصة السانحة ..

— صباح الخير يا ستى درية .

— صباح الخير يا كمال .. كيف حالك .. ؟ ألم تحضر لك فاطمة الفطور ؟

— ستحضره يا ستى .. لا تعبى نفسك .. اللهم اطل عمرك يا رب .

وتصرف عنه درية إلى شئون المنزل . يظل هو حيث هو ، إن رأى عينا تطل عليه أمعن فى الدعاء للعمدة ولزوجته وابنته ، وإن أمن كيد العيون صمت وظل ينظر إلى الخير الذى يرتع فيه العمدة ، فيرى الدجاج الكثير ومعه الوز والبطة ، ويلقى نظرة إلى مرتع الماشية فيرى عددا وغيرا من الجاموس والبقر والثيران والحمير والخيل .. ويل للأيام ! أكل هذا الخير فى بيت واحد تنعم به أسرة واحدة .. ؟ ! أهذا عدل يا رب ؟ وما لبيته جمع ما جمع من الطريق الحلال ! بل هو النصب والسرقة والرشوة .. عدلك يا رب .. هذا العتل الغليظ يتمتع بكل هذه الخيرات وأنا لا أملك شيئا .. ما ذنبى أن كان أبى طبالا فكنت مثله ؟ وكان أبوه عمدة فهو مثله .. ! أنا الذى خلقت أبى وجدى ومن سبقهم وقتلت لهم كونوا طيبالين فكنا .. ؟ ! أى ذنب جنيته ؟ ! آه لو تحقق حلمى .. ! اللهم حقق أملى يا رب .. شيء تافه ذلك الذى أرجو أن أحصل على ثمنه .. أو أجده .. أو حتى أجد فرصة لاسرقه ..

وتنقطع آمال كمال عندما تأتى فاطمة وفى يدها الطعام ،
ويسارع كمال داعيا لها مازحا :

— اللهم أطل عمرك يا فاطمة أنت وسيدى وستى ..
— يا أخى كل .. مالك كثير الكلام !! ؟ أنظننا فارغين
مذك ؟ ! كل بسرعة .

ولا يمنع هذا الرد الجاف كمالا من أن يصل مزاحه :
— اللهم لا تحرمنى من يدك الكريمتين . تتزوجينى يا فاطمة ؟
وتغضب فاطمة من هذا المزاح الثقيل ، وتثور أن ينطق
كمال — وإن كان مزاحا — بمثل هذه الكلمة ، فما كانت لتظن
أن يخطر بباله هذا الفكر . وإن كان مزاحا فهي تسارع مجيبة
وقد دقت صدرها بيمنها وبدأ الحنق على وجهها :

— هل جننت يا ولد ؟ ! ألم يبق إلا أنت يا طبال حتى تقول
هذه الكلمة ؟ ! والله إن لم يبق فى الدنيا كلها إلا أنت لما قبلت
أن أسمع منك هذه الكلمة .

ولا يعجب كمال من ردها هذا كان يعلمه ، ولكنه يسارع
ملاطفا فى ضحكة ما زالت مازحة :

— أمرف يا فاطمة .. لكنى كنت أمزح .
— ولو .. لكل شيء حد .. ! إيصل بك المزاح إلى هذا ؟
— لا تغضبى يا ستى فاطمة ، أنا غلطان .
— طيب ، كل وأسرع .
— اللهم أطل عمرك يا فاطمة أنت ..

وتتركه فاطمة وتنصرف إلى عملها ، ويفكر هو فيما كان
بينه وبين فاطمة غير غاضب ، فهو قد تعود أن تصده الالسنه

وتعود أن يحتلها ، ولكنه يخاف أن يبلغ الغضب بناطمة حد .
تبلغ معه سيدها بما كان من أمره وأمرها ، ولكنه لا يلبث أن
يصرف هذا الخاطر عن ذهنه فهي تعلم أنه كان يمزح ولن تذكر من
الأمر شيئا ، نفاطمة عاتلة ، وهي تلبى أن يرتبط اسمه باسمها
وإن كان بمزاح .



يخرج العمدة إلى شرفة منزله فيستقبله شيخ الخفراء بالتحية
والود ، ثم يسأله العمدة :

— هل أرسلت أحدا يحرق الفدائين كما قلت لك أمس ؟

ويجيب شيخ الخفراء في فرح :

— نعم يا حضرة العمدة . . لقد ذهب إليهما عبده أبو مسعود
بعد صلاة الفجر مباشرة .

— وهل اتفقت معه على الأجر ؟

— خيرك سابق يا حضرة العمدة

— لا . . أنا لا أقبل هذا أبدا .

— لا تقبل ماذا يا حضرة العمدة ؟

— أريد أن يرشوني أبو مسعود ؟

— لا . . ومن قال هذا لا سمح الله . . ؟ إنما هو يقدم خدمة

خالصة لوجه الله .

— آه . . . إن كان هذا فلا بأس .

— وسيزورك الليلة إن شاء الله .

— زيارة لوجه الله أيضا ؟

- طبعا .. طبعا يا حضرة العمدة ، لكن فقط ..
— ماذا ؟
— له مسألة بسيطة .
— ما هي ؟
— عبد الحميد جاره منع عنه المياه .
— ابن الكلب ! والله !منعنه هو أن يروى أرضه ؟
وأجعلن الماء يمر فى أرضه إلى عبده أبو مسعود .. ألم يأت
صالح حتى الآن ؟
— لقد رأيته راكبا حماره فى الفجر ، يمر بالبيوت ليشتري
الفراخ التى طلبتها منه سعادتك .
— أنا ! .. اطلب ؟ اتعقل هذا يا عبد الجليل .. ؟ اليس هو
الذى قال إنه سيحضر لى فراخا اليوم ؟ ! وحين أقسمت أن
ياخذ ثمنها أقسم هو بالطلاق أنه سيحضرها هدية فى مقابل
تعبى فى قضيته التى كانت بينه وبين امرأته ؟ سبحان الله
يا أخى .. أرفض الهدية وأطلق المرأة من زوجها ؟ ألم تكن
شاهدا ؟
— نعم يا حضرة العمدة ولكنى نسيت .. ولكنك يا حضرة
العمدة — بسم الله ما شاء الله — تتذكر كل شيء .. هذا ما كان
والله !
— وأنت ماذا تنتظر ؟ ألم تذهب لتراقب الأولاد وهم يجمعون
القطن ؟
— لقد جئت يا حضرة العمدة من أجل هذا .
— من أجل ماذا ؟

— أريد أن أجمع القيراطين اليوم ، وأريد أن تمنحني
إجازة .

— ماذا جرى يا عبد الجليل ؟ اتطلب الإجازة اليوم ؟ وتريدها
اليوم ؟ لماذا لم تقل بالأمس حتى أرسل غيرك ؟
— والله يا حضرة العمدة نسيت .

— دائما تنسى .. ولكن لماذا تجمع القطن اليوم .. ؟ لماذا
لا تنتظر إلى الغد ؟

— لقد ذهب الأولاد فعلا إلى الأرض .

— اجعلهم يذهبوا إلى أرضي اليوم ، وغدا اجمع قطنك .

— أمرك يا حضرة العمدة .

— وما أجر الولد عندك ؟

— مثلما تعطيتهم يا حضرة العمدة .

— عظيم .. لقد خفت أن ترفع أجورهم فيتركوني إليك .

— وماذا يفعلون عندي .. ؟ سعادتك عندك الأرض واسعة ،

أما أنا فثلاثة أفدنة .. أيتركون الدائم للعاجل .. ؟ أهم مجانيين ؟

ويضحك العمدة ملء شذقيه بهذه المقارنة التي جعلته
يزداد إحساسا بمكانته ، ويأمر شيخ الخفراء بالانصراف ليشراف
على جنى القطن ونقل الأولاد من غيط إلى غيط ، ويكاد شيخ
الخفراء يفعل لولا خفير التليفون الذي يأتي مهرولا مقبلا من
حجرة التليفون التي كانت أمام الشرفة ... ويصبح الخفير :

— انتظر يا شيخ الخفراء .

ويسأل العمدة في قلق :

— ماذا جرى لك يا ولد يا عبد الهادي ؟

— المأمور يا حضرة العمدة .
— ماله يا ولد ؟
— يچيء الآن .
— الآن يا ولد ؟ !
— الآن يا سيدى .
فيلتفت العمدة إلى شيخ الخفراء فى اهتمام :
— عبد الجليل .. أين الخفراء ؟
— فى الغيط .
— اجمعهم وأسرع :
— امرك يا حضرة العمدة .. ولكن الا تعرف لماذا سيأتى
المأمور ؟
— على عليك يا عبد الجليل .. اذهب أنت الآن وأحضر
الخفراء .
ولكن عبد الهادى خفير التليفون لا يجعله يذهب ، فكانما
اقسم فى صباحه هذا أن يثير الرعب والقلق فى نفس العمدة .
— بل انتظر يا عمى عبد الجليل .
فيقول العمدة فى ثورة مكبوتة :
— ماذا تريد أيضا يا عبد الهادى ؟
— مسعادة البك المأمور يريد مشايخ البلد .
— أيضا ؟
— أيضا .
— ومن أين آتى بهؤلاء .. ما هذا النهار الاسود ؟
ولكن شيخ الخفراء يسرع إلى نجدة عبته :

— وما يهلك يا حضرة العبدة . ؟ سنخبر الذى نجده ،
ومن لا نجده نخبّر المأمور أنه ذهب إلى البندر لأنه لم يكن يعلم
بمجيئه .

— وهو كذلك .. اذهب إذن فادع من تجده ، ومر الخفراء
أن يلبسوا ملابسهم الرسمية ويقفوا طلى طول الطريق من عند
المفارق حتى البلدة ليؤدوا التحية .

ويذهب شيخ الخفراء ، وينفتل العبدة إلى منزله فى حيرة
واهتمام بالغين مناديا زوجته :

— يا صفية .. يا صفية .

وتجيب زوجته من اقصى المنزل :

— نعم ... نعم ..

فيسارع إليها العبدة حيث هى ويصرخ فى وجهها :

— المأمور يا صفية ، المأمور !

— ماله المأمور ؟

— وصلت إلينا إشارة تليفونية الآن أنه ...

— مات ؟

— لا ... سيجىء ..

— أكل هذا لأن المأمور سيجىء ؟ .. أهذه أول مرة يزورك

فيها المأمور ؟ .. إنك منذ عشرين سنة عبدة ، وفى كل يوم
يأتيك مأمور .

— نعم ، ولكن هذا مأمور جديد ، ويقولون عنه إنه شديد
جدا

— إنهم فى كل مرة يقولون إن المأمور الجديد شديد ، ثم

بأتى ، وما إن تصل إليه الفراخ والسمن والديوك حتى يصبح
لينا لطيفا كالخراف التى تذهب إليه تماها .

— هذا صحيح ، ولكن لابد لنا من جس النبض أولا .

— اذهب واطمئن ، وكل شئ سيكون على ما يرام .

— الفطور يا صفية .. هذه أول مرة يزورنا فيها المأمور
الجديد .

— ألم اقل لك اطمئن .

ويذهب العمدة مهرولا ليرى كيف دبر شيخ الخفراء الأمر ،
ولكن الوقت لم يتسع بعد لأن يصل شيخ الخفراء إلى أول
خفير ، ولابد من الانتظار .. انتظارا قلعا مليئا بالأفكار السوداء
.. أى داهية ستحط على دماغه إذا جاء المأمور ولم يجد من
طلب أحدا .. لا شك أنه سيقفه عن العمودية ، ومن يدري من
أى حزب هذا المأمور ؟ لعله من الحزب المناوىء ؟ ! ولكن ما يهم ؟
إن جميع المأمور ينتمون إلى الحزب الحاكم ، والحزب الحاكم هو
حزب العمدة والحمد لله .. لعله إذن شريف . يا للخراب لو كان
شريفا ! . إذن فهو لن يقبل أن يتناول الفطور ، وإذن لن يقبل
الهدايا التى سيقدمها له . ولكن كيف يكون مأمورا شريفا ؟ ! إنه
مأمور .. ثم هم يقولون إنه مأمور قديم .. أى أنه ظل مأمورا
مدة طويلة من الزمان وهل يعقل أن يظل مأمورا مدة طويلة من
الزمان ويظل شريفا .. ؟ لو أنه كذلك لكان قد فصل منذ زمن
بعيد !! أو كان على الأقل قد نقل إلى وظيفة أخرى .. ! ولكن
هب يا حضرة العمدة أنه صغير فى السن ، وأن تلك الأنباء التى
وصلت إليك كاذبة ، وأنه ما زال طائشا مجنوننا يعتقد فى الشرف

وَيَتَمَسَّكُ بِأَهْدَابِ الْفَضِيلَةِ .. إِذْنُ فَهُوَ مُتَعَجِّزٌ وَلَنْ يُمْكِنَ لَكَ
يَا حَضْرَةَ الْعَمْدَةِ أَنْ تَتَفَاهَمَ مَعَهُ ، وَإِذْنُ فَهُوَ سَيَقْشُكَ ، بَلْ لَعَلَّهُ يَفْعَلُ
مَا هُوَ أَهْمَى لَعَلَّهُ يَفْصِلُهُ عَنِ الْعَمَلِ .. يَا لِلْخُرَابِ النَّازِلِ !! ..
يَفْصِلُهُ مِنَ الْعَمُودِيَّةِ .. تِلْكَ الْوُظُفِيَّةُ الَّتِي ظَلَّ فِيهَا عَشْرِينَ عَامًا ..
وَإِي مَصِيرٍ سَيَصِيرُ إِلَيْهِ ؟ وَكَيْفَ تَتَزَوَّجُ دَرِيَّةً إِذْنُ ؟ وَمِنْ ذَلِكَ
الَّذِي سَيَتَزَوَّجُ ابْنَةُ عَمْدَةٍ مَفْصُولٍ ؟ .. نَعَمْ إِنْ عِنْدَهُ خَمْسِينَ
فَدَانَا ، وَلَكِنْ مَا خَمْسُونَ فَدَانَا بِالنَّسْبَةِ لِلْعَرِيسِ الَّذِي يَرْجُوهُ
لِدَرِيَّةٍ ؟ .. إِنَّهُ يَرِيدُ شَابًا مِنْ كِبَارِ الْأَثْرِيَاءِ ، ابْنُ أَحَدِ الْبِاشَوَاتِ ،
فَمِنْ تَوَاضَعُ فَمِنْ أَحَدِ الْبِكَوَاتِ . وَمَا الَّذِي يَدْعُو مِثْلَ هَذَا الشَّابِ
إِلَى الزَّوْجِ مِنْ ابْنَةِ عَمْدَةٍ مَفْصُولٍ ، لَا يَمْلِكُ مِنْ حُطَامِ الدُّنْيَا
إِلَّا خَمْسِينَ فَدَانَا لَنْ تَزِيدَ ؟ وَمَنْ أَيْنَ لَهَا أَنْ تَزِيدَ وَقَدْ فَصَلَ صَاحِبُهَا
مِنَ الْعَمُودِيَّةِ ؟ ! وَيَلْ لِدَرِيَّةٍ مِنَ الْأَيَّامِ إِذْنُ لَوْ كَانَ الْمَأْمُورُ شَرِيفًا !

بَلْ وَيَلْ لِي أَنَا حَضْرَةَ الْعَمْدَةِ إِذَا كَانَ الْمَأْمُورُ شَرِيفًا .. مَاذَا
أَفْعَلُ ؟ .. أَيْنَقُلُ هَذَا التَّلِيفُونَ الَّذِي ظَلَّ بِبَابِي عَشْرِينَ عَامًا ؟ ..
أَلَا يَدْعُونِي أَحَدٌ إِذْنُ بِبِاحْضَرَةِ الْعَمْدَةِ ؟ .. وَمِنْ ذَلِكَ الَّذِي
سَيَعْبُدُ عَمْدَةً بَدَلًا مِنِّي ؟ .. لَعَلَّهُمْ يَنْتَخِبُونَ ذَلِكَ الرَّجُلَ الْخُرَفَ
عَبْدَ الرَّحْمَنِ السَّلَامِيِّ . ذَلِكَ الْقَرْزُ الْقَمِيءُ .. ذَلِكَ الرَّجُلُ
النَّحِيلُ ، الْفَقِيرُ ... نَعَمْ فَفَقِيرٌ .. إِنَّهُ لَا يَمْلِكُ غَيْرَ عَشْرِينَ فَدَانَا ،
وَلَكِنَّهُ أَغْنَى فَرْدٌ فِي الْبَلَدَةِ بَعْدِي .. وَيَلْ لِي إِذْنُ .. لَكِنْ مَا لَكَ
قَدْ يَثْبُتُ إِلَى هَذَا الْمَصِيرِ الْأَسْوَدِ ؟ إِنَّكَ بَعْدَ لَمْ تَرِ الْمَأْمُورَ ..
آه إِنْ الْمَصِيبَةَ هُنَا .. إِنَّنِي لَمْ أَرِ الْمَأْمُورَ حَتَّى الْآنَ .. أَكُنْ
لَا بَدَّ أَنْ أَكُونَ مَرِيضًا حِينَ دَعَا الْمَأْمُورَ الْعَمْدَةَ لِلْاجْتِمَاعِ بِهِ ؟
أَمَا كُنْتُ أَسْتَطِيعُ الذَّهَابَ ؟ .. وَكَيْفَ ؟ ! أَكُنْتُ أَرِيدُ الْمَأْمُورَ

أن يرانى متوكفا على عصاى ، ضعيفا لا قوة بى ولا هبة ؟
 ماذا كان سيظن حينئذ ؟ لقد كان جديرا إذن أن يظننى ضعيفا
 غير حازم ، لا أستطيع معالجة الأمور الجلائل التى تتعرض لها
 العمودية . كان لايمكن الذهاب ولكننى أرسلت تلغرافا ..
 أجل .. إبنى بهذا التلغراف أعلنت إلى المأمور الجديد أننى
 رجل احترم اجتماع العهد ، كما أننى غنى لأننى أرسل تلغرافا
 لا خطابا مع خفير . كما أننى كريم لأننى لم أبخل بثمن التلغراف
 المطول الذى أرسلته إليه .. أجل لقد كانت فكرة طيبة فكرة
 التلغراف هذه ، وكان أسلوبه أيضا عظيما .. هذا الولد ابن
 الشيخ حسن يكتب كتابة عظيمة .. ولد طبيب فخرى ابن الشيخ
 حسن هذا . لقد اهتمم بالتلغراف اهتماما بالغاً .. أكثت فكرته ..
 أم كانت فكرتى ؟ لا إنها فكرتى .. نعم هو فكر أولى ولكننى
 نفذتها . أجل ، الست أنا من أرسل التلغراف .. ؟ الست أنا
 من دفع أجره ؟ ولكن لا ، إنه هو الذى دفع الأجر . !! نعم
 وهو الذى كتبه . ولكن .. ولكن الست أنا على أى حال من
 وقعه ؟ ! ولكن التوقيع لا يصل مع التلغراف . !! نعم ولكنسه
 كان باسمى .. النهاية كانت فكرة عظيمة أقول فى التلغراف ..
 أعنى أن فخرى يقول باسمى : لمرض فاجأتى واضطرنى إلا أنال
 شرف ..

وحينئذ يسمع نفير سيارة قادمة من قريب .. أى نهال
 أسود هذا ! لقد وصل المأمور ولم يصل المشايخ .. ولا حتى
 الخفراء . وما هى إلا لحظات حتى كان المأمور يترجل سيارته

ذات الصندوق الضخم الرمادى اللون امام بيت العمدة .. الحمد
 لله إن المأمور كبير السن .
 — أهلا وسهلا سعادة البك المأمور .
 — أهلا بك يا عمدة .
 — شرفت يا سعادة البك .. نورت يا سعادة البك .
 — شكرا يا عمدة
 يا عمدة .. من غير حضرة .. النهاية .. اللهم اجعله خيرا .
 — لم تصلنا الإشارة إلا الآن يا سعادة البك ، وقد أرسلنا
 فى طلب المشايخ .
 — أنتظر إذن .
 — اظن أن سعادة البك لم يتناول فطوره بعد .. الفطور
 جاهز يا سعادة البك .
 — وما لزوم التعب يا حضرة العمدة ؟
 لقد جاءت حضرة أخيرا .. يومنا لبين إن شاء الله .. يسارع
 العمدة بالإجابة :
 — تعب يا سعادة البك ؟ .. تعب ؟ .. فطور سعادتك تعب ؟!
 هذا شرف يا سعادة البك .. هذا تنازل يا سعادة البك .. يا ولد
 يا عبد الهادى .
 ويأتى عبد الهادى مهرولا .
 — نعم يا حضرة العمدة .
 — الفطور يا ولد لسعادة المأمور .. أسرع .
 — دقيقة واحدة يا حضرة العمدة .. دقيقة واحدة .
 وينصرف عبد الهادى يتعجل الفطور ، ويجلس العمدة

إلى المأمور يبالح في التحية ويمعن في التبجيل ، والمأمور يقبل
في عظمة متواضعة وفي خجل متكبر ، ثم هو يقول وكأنها تذكر
شيئا قد نسيه :

— آه ... لقد كنت ناسيا .. لقد ..

ويسارع العبد :

— خير يا سعادة البك ؟

— لقد نسيت أن أقول لك : الحمد لله على سلامتك .

— سلمك الله وعافاك يا سعادة البك .

— مم كنت تشكو يا حضرة العبد ؟

— الروماتيزم يا سعادة البك .

— آه ، هذا مرض ثقیل ؟

— أى والله يا سعادة البك .. وليس أثقل منه إلا المأمور
الذى كان قبل سعادتك .

ويظهر الغضب على وجه المأمور ، ويثور بالعبد ثورة
جامحة :

— ماذا تقول يا عبد ؟ .. اهذا يليق ؟

إذن فقد طارت حضرة مرة أخرى .

— العفو يا سعادة البك ، أستغفر الله .

— اهذه هي الطريقة التي تتكلم بها عن رؤسائك ؟

— .. يا سعادة البك ... يا ...

— ألا تعرف أن المأمور الذى كان قبلى أخى الأكبر ؟

ويقول العبد في نفسه :

— « أنا عارف أنه نهار أسود » .

ثم يسارع إلى المأمور قائلا :

— من تقصد سعادتك ؟

— محمد علاء الدين .

— ولكن .. ولكن يا سعادة البك أنا اقصد .. أنا اقصد
الذى كان قبله .. ذلك الرجل الغاضب دائما .. مرق كبير بينك
وبينه يا سعادة البك . أما أخوك — حماه الله — لقد كان رجلا
بمعنى الكلمة .. والله لقد حزنا لنقله حزنا عظيما .. الله شهيد .

— آه ، أنت تقصد عبد السميع بك ؟

— آه ، هو هذا .

— أعرفه .. رجل ثقیل ..

وينشرح صدر العمة ، ويحمد الله في نفسه ، فقد أصبح
اليوم لبنا مرة أخرى ، ويقول للمأمور :

— ثقيل ؟ لا .. ثقيل فقط يا سعادة البك .. أعوذ بالله ..
سعادتك تعرفه إذن ؟

— أعرفه .. كان رئيسا على .. أنت محق يا حضرة العمة .

إذن فقد عادت حضرة .. أهلا بها .. ولكن مشكلة جديدة
بمسبيلها إلى الظهور .. اللهم نجنا مما نخاف .. ألم يجد صالح
الكلب وقتنا للفراخ إلا الآن .. طارت حضرة .. لا بك طارت
الفراخ .. يا أخى الفراخ فى داهية ، المهم الآن هو العمودية ..
مصيبة لو كان هذا المأمور شريفا .

ويقبل صالح فى إعجاب شديد بنفسه أن أوفى بعهده
وأحضر ما وعد به العمة فراخ سمان .. وما إن يبلغ صالح

مجلس العمدة والمأمور حتى يتخففاً من القنص الذى يحمله بأن
 يضعه فى زهو أمام الجالسين ..
 — الفراخ يا حضرة العمدة .
 — أى فراخ يا ولد ؟
 — الفراخ التى ..
 ويقاطعه العمدة فى سرعة خائنة لمتاعة :
 — اذهب الآن يا صالح .. سعادة المأمور هنا ولن أشتري
 فراخاً فى وجوده .
 وينتقد المأمور الموقف فى كياسة مرنة وفى دربة واعية :
 — والله فراخ عظيمة يا حضرة العمدة .
 وكأنما كان العمدة فى غمرة من بحر متلاطم ثم وجد نفسه
 نجاة على الشاطئ الأمين ، فهو يسارع قائلاً لصالح :
 — ضع هذه الفرخ فى سيارة البك المأمور يا صالح .
 ولكن المأمور يستر الموقف فى غضبة واضحة الاصطناع ،
 يتقنها منذ تعود أن يقبل هذه الهدايا :
 — لا .. لا يا حضرة العمدة .. والله لا يمكن .
 — زوجتى طالق إن لم تقبل هذه الهدية .
 — يا رجل اتق الله .. حرام يا رجل .. الأمر الله .. الأمر الله .
 وبين هذه الأيمان المتبادلة كانت الفراخ قد أخذت مكانها
 المستقر فى السيارة ، وكان النظور قد أعد ، وكانت نفس العمدة
 قد هدأت بعد اضطراب ، فقد رضى الله عنه وأرسل إليه مأثوراً

طينيا مثل كل مأمور عرسته قبل اليوم ، والحمد لله من قبل ومن
بعد .

دخل العمدة وراء المأمور إلى المنزل ، ونبت من مكان خفي
ذلك الشيء كثير الدعاء كثير الحقد « كمال » ، بعد أن رأى
المسرحية منذ بدئها حتى أنزل عليها الستار. فى حجرة الطعام . .
وسار كمال فى طريقه وهو يردد :

— يا رب أهو كثير ما أطلب ؟ . مجرّد مسدس يا رب أو ثمنه
. . من أى مكان . . مسدس يا رب .

- ٢ -

للكتاب فى القرية اثر بعيد ، فمن بين جدرانها المتهالكة
ومن تحت فلقه الشيخ العفيف ، يخرج إلى الحياة صبيان تعلموا
الجهل فاحسنوا تعلمه . مكن ما يعرفونه من الثقافة قراءة عاجزة ،
وكتابة أكثر عجزاً ، وهم وإن كانوا قد أخذوا على الشيخ
القرآن فحفظوه إلا أنهم أبدا لم يفهموه ، وما كان لهم أن
يفقهوا منه شيئاً والشيخ نفسه أكثر جهلاً به منهم . ويخرج
هؤلاء الصبيان إلى الحياة وينظرون حوالىهم فيجدون أنفسهم
أكثر من ذويهم علماً وأكثرهم معرفة ، فيدخل إلى نفوسهم الغرور ،
ولا يزال بهذه النفوس حتى يملأها لا يترك فيها مكاناً لتواضع ،
أو منفذاً لبعض حياء . وللغرور فى هذه النفوس أشكال
وأوضاع . فمن كان منهم ذا يسار ونعمة يرتكن إلى أب ذى مكان
بعض ملحوظ ، فغروره إذن متفجر واضح لا يبقى ولا يذر ، فهو
هو الأستاذ الغنى والعالم التقدير .

ومن كان منهم غير ذى يسار ، ولكنه ذو أصل دارس وغنى
تشقت فاصبح فقراً فبيته دوار وإن كان خالياً ، وأبوه محترم
وان كان فقيراً ، وأمه لا تخرج بالجرة وإنما ترسل أخته . . إن

كان الفتى كذلك فغروره إذن صبت ، واستعلاؤه بعد عن سائر
الفتيان .

وأما من تخرج فى الكتاب فلم يجد وراءه أصلا ، ولم يجد
إمامه مالا ، فكبره إذن خبيث ، يؤديه اللفظ اللين الناعم يغلف
به السم الناقع المتراكم فى نفسه ، وكبره أيضا فقد مستعر
وكبره للعالم كله ممثلا فى قريته ، يخص منها ذوى اليسار
وذوى الأصل ، وذوى المكان وذوى الثقافة .

ولا ينكسر الغرور فى واحد من هؤلاء إلا إذا تقدمت به
السن أو اتاحت له الحياة أن يكمل تعليمه ، فإنه حينئذ يدرك
مقدار ما كان يجهل ، ويرى من حوله القوم متساوين معه إن
لم يكونوا أحسن منه حالا ، فيصاب غروره برعدة ، ثم ما يلبث
أن ينقشع عنه .

وقد كان كمال من هذا الصنف الأخير من المتكبرين . وقد
رأينا بعض كبره عند العدة ، فما كان تزلفه الحقير إلا كبرا ،
فهو يعتقد أنه بالفاظه تلك قد طوى العدة وضحك منه ، وأنه
ببعض الفاظ لا تكلفه شيئا — فما كانت الكرامة عنده شيئا —
قد بلغ من مال العدة ما قدر لنفسه أن يبلغ فى يومه هذا .

سار كمال فرحا بنفسه وبذكائه ، متحسرا فى الوقت نفسه
على هذا الذكاء الذى أبته الدنيا إلا أن تعطله ولا تتيح له مجالا
يسمى فيه ، حاقدا على هذه الدنيا البخيلة ، أشد حقدته على
ذلك العدة الذى يهدى الفراخ السم أن ليضمن لنفسه البقاء
فى منصبه .

ولم يطل بكمال المسير فسرعان ما التقى بفئة من القرية لا تحس



به ، إلا أنه هو يعتقد أنها تبغضه وتحقد عليه لأنها تخافه وتخشاه ،
تلك هي فئة التلاميذ أولاد المدارس .

لقد كان كمال يعتقد أن هذه الفئة تحس بمبلغ علمه وتعرف
أنه يزاحمها فيما تعلموه في المدارس ، وأنه بذكائه وحده غنى
عن تلك الكتب التي يجلسون فيها عقولهم ، وهم ينفسون عليه
هذا الذكاء المتوقد الذي لم يمنعه من الظهور إلا زمن غادر ، وفقر
مريو .

وهكذا شاء كمال أن يسخر من تلك الفئة المتعالمية ، فما
إن رآها حتى قصد إليها في استرخاء ساخر ، وعلى فيه ابتسامة
تعلم أن يضعها على فمه منذ رأى شيخ الكتاب يستعملها إن
أراد سخرية ، وفي لسانه لفظ تعلم أن يديره منذ اتخذ
الاستجداء وسيلة إلى الحياة .

— أطلان الله عمركم ، وأخذ بيدكم وجعل النجاح نصيبكم .

وشاء أحد التلاميذ أن يتبسط مع كمال :

— شكرا يا أبا كمال شكرا .

ولكن تلميذا آخر يسرع بالإجابة :

— ولكن شكرا هذه لا تنفع يا أبا كمال ، والذي ينفع ليس

معنا .

ويدرك كمال ما يقصد إليه التلميذ فهو يقول :

— فهل أنتم مفلسون ؟

— يا رب كما خلقتنا .

— فاشرحوا لي آية من القرآن فأكون قد أفدت منكم علما

ما دمت لم أفد مالا .

— الله .. يا أبا كمال .. وهل نحن نأرغون لمسامرتك ؟

— أنا لا أراكم تعلمون شيئا ؟

— والله إن فراغنا أحب إلينا من أن نشغله بك .

— خذ يا أبا كمال قرشا وتوكل على الله .. مع السلامة .

ويأخذ أبو كمال القرش وقد ازداد إيمانا أن فئة التلاميذ تخشاه وتبغضه ، ولكن لا بأس بها ما دامت تدفعه عنها بالمال مهما يكن قرشا .

ويبقى كمال ليكمل دورته اليومية ، فقد كان يأخذ نفسه بالعمل الكثير ويجرب ذكاه يوميا على كل فئة من فئات القرية ، وقد كان لا بد له أن يدور طوال يومه حتى لا يبيغته وقت الغذاء خاليا بعيدا عن الناس . وكان لا بد له أيضا أن يغشى الجامع ليقيم الصلاة في موعدها مع المصلين ، فإن عدم الصلاة في القرية كبيرة من الكبائر التي لا تغتفر ، وهو يحب أن يترضى عقول القوم وأن ينسرب إلى قلوبهم من أي سبيل .. وقد كان كمال بعد هذه الواجبات جميعا يخلو إلى نفسه منذ الأصيل إلى الغروب في مغارة في الجبل لا يعرفها إلا هو .

وقد وجد كمال أن ثمة فسحة من الوقت قبل أن تجب صلاة الظهر ، فهو إذن يستطيع أن يعرض لقوم آخرين ، إن لم يصب منهم مالا فهو على الأقل يحتسبها عليهم مرة لم يعطوه فيها ، فيضطروا إلى إعطائه في المرة التالية .

وهكذا أخذ كمال يمر على الناس فيجد النفور والازدراء أغلب الأحيان ، أو يجد الإعطاء الشحيح بعض الحين ، أو لعله يجد — ولكن نادرا ما يجد — سماحة في البذل وكرما في اللقاء . ومهما

يكن اللقاء وعلى أى نوع له ، فإن كمالا يتصرف ونظره إلى السماء داعيا الله . نعم . الله الذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر والبغى ويعظنا لعننا نتقى ، يجرؤ كمال أن يتجه إلى هذا الرحاب ليسأله . . « مسدس » ، أداة القتل والعدوان ووسيلة المنكر والبغى . . ولكن من للشرير غير الله ؟ . سبحانه متجه القلوب جميعا . . . حتى كمال .

كل أهله أن يجد هذا المسدس أو يجد ثمنه ، فإن لم يتيسر فلتكن بندقية أو مقروطة ، والمقروطة بندقية نجار عليها الزمن فقطعت مقدمتها فلا هى بندقية ولا هى مسدس ، ولكنها عند القتل تؤدي الغرض كما يؤديان . ثم هى تمتاز عن البندقية فى أنها تختفى فى الثياب فلا يراها أحد ، وعن المسدس فى أنها تحكم التصويب وتبلغ الهدف فى وثوق . وصاحب المقروطة مخور بها أشد الفخر ، يدعى — لشعوره بنقصها — أنه قطعها خصيصا حتى يبتعد مرماها ، مخالفا فى ذلك كل ما يقول به هواة السلاح وخبرائه . لا بأس بها أيضا لكمال ولكن . . . أين هى ؟

وفى « أين هى ؟ » هذه مثنى كمال يفكر ، ويمنى نفسه الأمنيات ويوسع للأحلام آفاقها ، ويمر بالفقر المعدم فينظر إليه نظرة الأخ فى الشقاء ، ويعزم فى نفسه إذا ما عثر على المقروطة وتحققت الآمال أن يجعل لهذا الفقير نصيبا من بعض ماله . ثم هو يرجع إلى نفسه يسألها إن كانت ستسمح يومذاك ؟ فإذا نفسه تجيبه فى سرعة متوثبة أنها ستسمح ؟ فيعود إليها يسألها : من أين لها هذا الخير الذى تصطنعه ؟

فلا تعجز نفسه عن الجواب ، فما هو الخير الذى يدفعها إلى
البذل وإنها هى الحاجة .. حاجة ؟ ألكون يومئذ فى حاجة ؟ .
نعم حاجة إلى الناس وليس إلى المال .. إلى الناس ! .. إلى
الكثرة الكاثرة من الناس ، فإذا سأل نفسه عن نفعها من الناس ،
وماذا يفيد هو من هؤلاء الذين تريد نفسه أن يضمهم إليه ،
ويبسط عليهم فضل عطفه وسابغ رحمته ؟ . حينئذ تضحك منه
نفسه تلك الضحكة الصفراء التى عرفها لها منذ امتزجا فاتفقا ،
ولا تسكت نفس كمال عن الجواب :

— ألا تعرف ماذا تريد من الناس أيها الغبى ؟ ألم تر منصور
الدراوى كيف ينظر إليه الناس نظرة احترام وتوقير وهو القاتل
السفك ؟ ألا ترى أنهم يمدحونه ويصفونه بالرجولة والكرم ؟ !

— وهبى ذلك صحيحا .. ما شأنى أنا بمنصور أو مهزوم
فيما نحن فيه ؟ !

— أيها الغبى ألا تعرف أن الناس هم الذين يجعلون المجرم
محسنا ، والقاتل كريما ، وما ذاك إلا لأنه يبذل لهم فنجان
قهوة أو لفة جوزة ، أو كرسى دخان ، فإذا ذكروهم واحد منهم
أن هذا الذى يمدحونه قاتل وإن كان كريما ، سارع أكثر الجالسين
ينهون ذلك المتحدث قائلين له : ما لنا وماله إذا كان قاتلا أو غير
قاتل ؟ المهم أنه كريم رحب اللقاء ، مفتوح البيت .. ألا ترى أن
له بيتا والقرية جميعها تعرف عنه أنه قاتل ، ولكن واحدا منها
لا يذكر عنه شيئا ؟ وكل من فى قريتنا هذه أو فيما جاورها إذا
دعى للشهادة فى حادثة قتل ارتكبها منصور ذكر فى جراءة وثبات

أن منصوراً كان يتناول العشاء عنده ، وأنه سهر معهم ليلته حتى طلوع الفجر يسمعون القرآن ، ويتبادلون الحديث .
وحينئذ ينتهز كمال الفرصة ليضحك من نفسه ، فيطلقها ضحكة معربة :

— أيتها النفس الغريزة امنئي تسخرين .. ؟ إلا تنظرين إلى قولك هذا، كم هو تافه لا يسنده منطق .. أظننت الشهادة التي يؤديها الشهود في صالح منصور ، مبعثها حب هؤلاء الناس لمنصور ؟

— أعرف أيها المتذاكى العبيط . إنه الخوف .
— نعم هو الخوف ، ولا شيء غير الخوف .

— أعرف ذلك وما هو عنى ببعيد ، ولكن منصوراً يتيح لهؤلاء الشهود أن يتخذوا لخونهم ستاراً من الرجوة .. هو الخوف ما يرسلهم يشهدون في صالح منصور ، ولكنهم يقتنعون أنفسهم أنها الصداقة التي تربطهم بمنصور تحتم عليهم أن بنجوه عند الشدة ، ويساندوه عند الحاجة ، فهم يشهدون الزور ولكنهم يرضون الصداقة ، وهم تصطك أسنانتهم خوفاً منه ولكنهم يقولون : إنها تصطك خوفاً عليه .

— وما يهمني أن يقتنعوا أنفسهم أو لا يقتنعوها ، ما داموا سيؤدون ما أريد أن يؤدوه .

— هناك فرق أيها الساذج .. لو أرضيتهم .. أو أرضيت غالبيتهم أصبح لك من بينهم عيون على أنفسهم ، وأنت حينئذ تستطيع أن تتشدد في يسر ، إنك تسرق ولكن المال مآله إلى الفقراء وليس إليك .

— على أية حال أيتها النفس لا بأس عندي أن أذكر هؤلاء
القوم حين يفتحها الكريم وتحصل على .. .

وحينئذ وجد كمال نفسه وجها لوجه أمام الحاج إبراهيم
الحسيني شيخ البلدة ، فما أسرع ما نفذ كمال نفسه من حديث
نفسه وتمرغ إلى الحاج بكله :

— صباح الخير يا عم الحاج إبراهيم .

— صباح الخير يا ولد يا كمال ..

— إلى أين إن شاء الله ؟

— وما شأنك أنت ؟

— إن كان الطريق طويلا أتطعمه معك بلساني فأسليك ونحدث
حتى تصل .

— يا حول الله يا ابني .. على كل حال قضا أخف من قضا .
أنا ذاهب إلى دكان الحاج على أسمع الراديو ، وكان الولد
أحمد أبو خليل يريد أن يصحبني إلى هناك ولكنني هربت منه ،
وها أنتذا تحل محله .. قضا أخف من قضا .

— لك حق يا حاج إبراهيم ، ربنا رحمك من ثقل أحمد ..
ثقل يا حاج إبراهيم ثقل .

— ثقل لا يوصف يا كمال يا ابني .. والعجبية أنه يقول
النكات ويضحك منها ، ويعتقد أن خفة ظله لم ترد على بني
آدم ، وأنا رجل كبير .. لم أهد أحتل .. مرارتي يا بني لم تعد
تحتل .

— ألم يبع لك الفدان يا عم الحاج ؟

— أبدا .. مصمم على ألا يبيع هذا الفدان ، والفدان يا كمال
واقف في وسط أرضي كالعقلة في الزور .

— وكم عرضت عليه ؟

— ثمانمائة جنيه .

— وكم يطلب ؟

— ألفا .

— له حق .

— أما إنك بارد يا ولد يا كمال . الفدان في أرضي إن لم
أشتره أنا فلن يشتريه أحد ، وأنا مع هذا لا أظلمه وإنما أدفع له
ثمانمائة جنيه بينما لا يساوي الفدان أكثر من سبعمائة ، فيستغل
فرصة رغبتى فيه ويطلب ألفا .. ألفا مرة واحدة وتقول لى أنت
له حق . أما إنك بارد مثله .

— يا عم الحاج أنت لم تعرف تصدى .. أنا أقصد أنه محق
في أن يسوق الدلال ما دمت تعرض وتساهم .

— وماذا أعمل ؟

— مر .. أنت شيخ البلد .. أنت والعمدة على درجة واحدة
.. أرسل فيه بلاغا إلى المركز ، وحين يجره العسكرى يترك
أربعمائة بدلا من مائتين .

— أما إنك شيطان يا ولد يا كمال .. اهذا معقول .. ؟
لا .. حد الله بيني وبين الفدان ..

وينقطع الحديث عند هذا الحد فقد وصل المتحادثان إلى
المقصد .

وقد كان دكان الحاج على أو الحاجلى — كما ينادونه —

منتدى الصغوة المختارة من القرية ، يتحلقون فيه حول الراديو ويشاركون ساسة العالم وساسة مصر فى تصريف الأمور ، وان تكن هذه المشاركة تقف عند مننداهم هذا إلا انها تريح أعصابهم وتهدأ لها خواطرهم ، وتجعلهم يعتقدون انهم اهل تصريف وقوام أمور .

بلغ الحاج إبراهيم وكمال المنتدى ، وكان الجالسون هم الحاج على الطحان ، والشيخ رضوان العكلى المعلم الإلزامى ، وخطيب الجمعة ، والشيخ عبد الودود مائون البلدة الذى بملك فيها عشرة أفدنة كاملة فى طريقها دائما للزيادة . وقام الجالسون يحيون الحاج إبراهيم ، ولكن الشيخ عبد الودود لم يقبل أن يسير الحاج إبراهيم فى صحبة كمال فهو يقول :

— والله طيب يا شيخ البلد .. ألم تجد غير كمال ليسايرك ؟

وفضب كمال لهذا التجريح من رجل لم يأخذ منه فى حياته مليا ، ولا ينتظر أن يصيب منه فى حياته مليا .. فضب كمال وكان غضبه فى محلة .. فهو لا يغضب من أحد إلا إذا كان من غير المحسنين عليه ، ومن لا ينتظر أن يحسنوا إليه . وقد كان الشيخ عبد الودود من هؤلاء الذين لم تكن بينهم وبين كمال معاملة .. قال كمال :

— وماله كمال يا عم الشيخ عبد الودود ؟ إن كنت انت

لا ترحم اترك رحمة ربنا تنزل .

— الا تعرف ماله كمال .. ؟ شخص ضائع بلا صنعة !

— سامحك الله يا شيخ عبد الودود .

— لا شأن لك بالله .

— ولماذا ؟

— لأن الله يحب العاملين ولا يحب المتسكعين الخاملين .

وكاد النقاش يحدثم ، وكاد يصل بالشيخ والفتى إلى ما لا
تحمد عواقبه ، فلم يجد الحاج إبراهيم بدا من أن يصرف كمالا
فينصرف بعد أن يقول للحاج إبراهيم :

— والله لأجل خاطرك يا عم الحاج إبراهيم ، لأجل خاطرك
فقط .

ينصرف كمال ، ويقبل الحاج إبراهيم على الجماعة في إقبال
على الحديث ، وعلى تصريف الأمور السياسية والاقتصادية .

يترك كمال هذا المجمع الكريم من قادة القرية وزعمائها ،
معزيا نفسه أن له مجلسا آخر بين قوم آخرين يعرف لنفسه
مكانا بينهم ، ومهما يكن هذا المكان قاصيا غير كريم إلا أنه —
على أية حال — مكان .

- ٣ -

فى أقصى القرية بيت قائم بذاته لا يحيط به سكن ، اختار صاحبه مكانه بعيدا عن الناس ، ولم يكن اختياره هذا عقوا أو ليفكر فى خالق الليل والنهار — كما يطيب له أن يقول — وإنما اختاره خصيصا ليعصى فيه ومنه خالق الليل والنهار . . معصية لا يتوقف شرها على مرتكبها وإنما هو يبيع المعصية لكل راغب فيها ، مدين لها ، متكالب عليها .

يملك هذا البيت هلال النمرود ، وفى هذا البيت كان يتاجر فى المخدرات ، وفى هذا البيت تزوج النمرود من سلمى بعد أن أحبها ، وقد بنى لها هذا البيت من المكاسب التى سكبته عليه تجارته .

وقد ظل النمرود يمارس تجارته فى بيته هذا بعد زواجه من سلمى وظلت أمواله تتكدس وتزيد ، ولكنه قابض يده فلا يخرج منها إلا ما يبقى له ولزوجه الحياة . وكانت زوجه تحاول جهدا أن تفك يده المغلولة تلك ولكن هيهات ، فهو يحافظ على تلك الأموال حتى ينمى تجارته ، فقد كانت تجارته تلك حبيبة إلى نفسه فقد أكسبته مالا وزوجة وبيتا ، بل أكسبته أيضا اسما ، فإن اسم النمرود الذى أطلق عليه قد جاءه من تجارته ، ومن مهارته فى تصريف بضائعه .

لم تستطع سلمى أن تنجب لزوجها بنين أو بنات ، فكانت تجارته عنده هي البنين والبنات ، فلها وحدها يختزن المال ، ولها وحدها يسهر الليالى الطوال ويجوب المخاطر ويفشى الأهوال :-

والزوجة قابضة في بيتها فلا مال في يدها ولا ولد لها ولا زوج بجانبها ، فسرعان ما زالت عن هلال لهفة الحب الأولى وأصبح لا يرى فيها إلا امرأة عقيما لا عمل لها إلا أن تفتح عليه أبواب الخراب .

وهكذا وجدت سلمى نفسها قد فقدت كل شيء ، ولم يبق لها إلا تركه حواء .. امرأة .. امرأة عطشى إلى الحياة .. مشوقة الى الولد .. مهجورة من الزوج .. متجردة عن الحياة .. والليل طويل والزوج بعيد والشباب فوار ، والذئاب كثير والبيت منفرد .. فخانت .

خانت سلمى زوجها .. ولم تجهد نفسها في اختيار الرجل الذى لا تتم الخيانة إلا به ، فالببت في الليل مقصد زوار ، والزوار لهذا البيت لا يحتاجون إلى إغراء فهم يشترون المخدرات ، وهي من تباع لهم والحديث بينها وبين المشتري سائر لا شك إلى الطريق . وقد كان المشتري يعرض وكانت البائعة تعرض عن كلامه ، ولكنها حينما أرادت أن تخون أقبلت ، وأصبح المشتري يعلم - وهو يشتري - أنها تبذل له مع المخدر نفسها ، وأصبح وهو يشتري البضاعتين يدفع الثمن لكليهما جملة ... فتأخذ سلمى ثمن بضاعتها وتحفظ لزوجها ثمن بضاعته .

وظل الأمر كذلك حتى عرض لها ضمن المشتريين شاب

صغير ، لم يقف الأمر بينهما عند البيع والشراء بل أخذ طريقه إلى الإعجاب ، فأصبحت تمنحه بضاعتها بغير ثمن ، بل لقد منحته أيضا من بضاعة زوجها دون أن تتقاضاه ثمنها ، وإن كانت هي تعطى زوجها ماله كاملا .

وجدت سلمى في هذا الشاب كل ما كانت تفقده ولا تجده ، ووجد هو فيها كل ما كان يؤمل فيه ، فقد كان الفتى يحب أن تكون له زوجة في المساء إن خلا المساء من العمل ، ولا يحب أن تكون له زوجة في الصباح مهما يكن صباحه فارغا . إلا أن سلمى كانت تريد لنفسها زوجا دائما لا يريم عنها في صباح أو مساء ، فهي تطلب إلى الفتى أن يتزوجها فيقول :

— كيف ، وزوجك ؟

— وما شأنك ؟

— أيطلقك ؟

— وهل لابد له أن يطلقني حتى تتزوجني أنت ؟

— إذن فما معنى طلبك هذا ؟ ألا أتزوجك أنا في كل ليلة ؟

— معناه أن نعيش معا في الصباح والليل .

— وأين يمكن أن نعيش معا ؟

— في أي مكان .

— نهرب معا إذن !

— ولم لا ؟

— والله ...

— أنت متردد .

- لا أرى داعيا لهذا فنحن هنا ببسوطان والحمد لله ،
لا ينقصنا شيء .
- لا ينقصك أنت .
— فما ينقصك أنت ؟
— رجل .
— ألا يكفيك رجلان ؟
— تقصد نفسك وزوجى ؟
— السنا رجالا ؟
— أما هو فلا وجود له على الإطلاق ، وأما أنت . .
— نعم ، وأما أنا . . ؟
— وأما أنت فلا تأتى إلا مع الظلام ، ولا أراك إلا فى نور
المصباح الباهت .
- وفيم تهلك رؤيتى فى نور الصباح ؟
— أريد أن أملكك جميعا ، أريد كلك ، أريد أن أحس بالرجاء ،
الوحيد الذى أحببته ، أريد نفسى أن تطمئن إلى هذا الركن الذى
اخترته لحياتى ، أريدك .
- وكيف نصل إلى هذا الأمان وأنت زوجة لرجل آخر ؟
— زوجة لوهم مضى وحلم تبدد ، لا أراه — حين أراه —
إلا وهو بعد نقوده ، ويسلم بضاعته ، أو يتسلمها .
- ولكنك على ذمته !
— وما يهمك ؟
— أخاف أن يتعقبنى .
— اتخاف أنت ولا أخاف أنا ؟

- أنت تريدني جميعا ، وأنا لا أريد منك إلا ما أنال .
- أيفيك هذا منى ؟
- وهل هناك أكثر من هذا ؟
- نعم هناك .
- ماذا ؟
- أموال وفلوس ، نهرب معا ، ونتاجر معا .
- وزوجك ؟
- ألا تزال خائفا ؟
- والله مسألة الفلوس هذه . .
- مالها ؟
- عظيمة .
- إذن ؟
- متى نهرب !

وهربت الزوجة مع بضاعتها جميعا من مخدرات وأدميين ، وعاد الزوج فوجد البيت خاليا . . فخرج يسأل الناس عن زوجته فوجد بلاهة عن الإجابة وخوفا من الإفصاح . وطالعه من وجوه الرجال إشفاق فيه كبر ، ومن وجوه النساء بسمة فيها اعتزاز وفيها ألم . ولكنه التقى بالاحتقار من الرجال والنساء جميعا . ومن ضجيج البلاهة والخوف والإشفاق والكبر والعزلة والاحتقار عرف النمرود الإجابة ، ولم يعد إلى بيته ، بل لم يبق في البلدة جميعا وإنما تركها من غوره ، ولم يعد إلا بعد ثلاثة أشهر وفي يده جريدة تتحدث عن امرأة قتيل لم تعرف شخصيتها ،

وراح هو يؤكد ان هذه القتل هي زوجته ، واما القاتل فقد كان يترك لذكاء سامعه ان يستنتجه .

وهكذا جعلت هذه الاكذوبة من خزيه فخارا ، ومن خجله تبجحا ، ومن هربه عن القرية إقامة فيها مطمئنة ، يحيط به من كل مكان تملق راجف واحترام مذخور .

عاد النمرود إلى بيته القائم في أقصى القرية ، وجعل منه منتدى لأبناء الليل يجتمعون فيه على غابة تغيب بهم عن الوعي . وكان العمدة على علم بهذا المنتدى ، ولكنه يغضى عنه عينا مشغولة بالمأثور والمعاون والرشاوى الصادرة عنه أو الواردة إليه .

وكان منصور الدفراوى كبير مجرمى الناحية هو زعيم المنتدى ، يتعلق حوله المعجبون والخائفون من سيرته ، والمتعلقون الذين يريدون أن يقتنوا من النفاق ويـمـرنوا عليه . ولكن هؤلاء جميعا كانوا يلمون بالجلسة فلا يلبثون إلا قليلا ثم ينفضون عنها ، وتخلص الجلسة إلى الأربعة الزعماء : منصور الدفراوى ، وهلال النمرود ، والزهار عبد السيد ، ونو الكحلة . أما منصور فهو القاتل المحترف ، وأما هلال فهو الزوج الذى انصرفت عنه زوجته والذى ادعى أنه قتلها ، وأما الزهار ونور فنحن في طريقنا إلى الالتقاء بهما .

فالزهار فلاح قديم دخل القرعة العسكرية ، ولكنه ما لبث ان قضى فترة الخدمة العسكرية في الحبوس ، فقد تعود منذ كان فلاحا أن يسرق المالك ما أمكنه إلى ذلك سبيل . أما اليوم وقد دخل العسكرية فإنه لم يجد مالكا ليسرقه إلا الحكومة والزملاء ،

فسرق من كليهما وتعود الحبس . ولم يتعود من العسكرية إلا اللهم ، فقد تعلم كيف يصيب الهدف ، وتعلم كيف يسير فى دقة وكيف يميل بالطاقيّة الصفراء وكيف يفتح الزر الأول من أزرار الجلباب ، وتعلم من العسكرية انه لن يمسك بالفأس مرة أخرى . وتعلم من العسكرية العجز الكامل عن أى عمل يمكن أن يعهد به إليه اللهم إلا الوقوف فى الطابور . ولما كان الزهار لا يجد طابورا خارج العسكرية ، ولما كان لا يجديه نفعا طاقيته المائلة أو زره المفتوح أو مشيته المنتظمة ، فإنه لم يجد عملا آخر الأمر إلا السرقة التى كانت عنده — قبل العسكرية وأثناءها — هواية ، فجعل منها احترافا وانضم إلى جماعة المخدرات مساعدا للنمرود فى تجارته ، وعضوا فى منتداه ، ولكن تابعا وليس مقبوعا ينقض الأوامر ولا يصدرها .

وقد قامت بينه وبين سعيدة أم الخير قصة حب ، كان هو الطرف الوحيد فيها . فلم تكن الطاقيّة المنحرفة ولا الزر المفتوح ولا المشية المنتظمة ولا إجادة التصويب ، لم يكن شيء من هذا ليغرى سعيدة به . . ولكنه أصر على حبها فلم تبال هى ولا أبوها إصراره ، وتزوجت من صالح أبى سعد الله .

وأما نور الكحلة فهو رجل حديث التخرج من سجن المخيرية . ولقد سجن فى واحدة من جريمتين أحدهما يرويها هو والأخرى ترويها ملفات القضية القابعة فى المحكمة ، والثى لا يطلع عليها إلا المعنيون بالأمر . أما التى يرويها هو فهى أنه كان يحب فتاة تسكن فى جواره بالبندر ، وكانت البنت لعوبا تحب أن يعجب الناس بها ، وكان هو يرقبها ليلا نهارا . فحين عرفت القسوم

أنها لا تسير إلا وعينه رقيب عليها ، انفضوا عنها وتركوها خشية عيونه الرقبية وجبروته وعنفه ، وخشية سطوته وسلطانه ، فقد كان ساعى الباشا المدير . حتى كان يوم وقعت فيه مشادة بينه وبين ولد تافه يعمل كاتب حسابات فى المديرية ، فاجتاز منه الكاتب وأراد أن يفجعه فى أعز شيء لديه ، فتقدم للجارة يخطبها ، فلم يجد نور بدا من أن يطلق الرصاص على الكاتب ولكن الرصاصة أخطأته ، لأن السلاح كان قديما ، فحبس نور . . تلك هى رواية نور .

وأما الحقيقة فهى أن زورا كان يعمل ساعيا بمكتب المدير حقا ، ولكنه لم يجب فتاة ولم يطلق رصاصا ، وإنما سرق حافظة المدير فى أول الشهر وعاش المدير شهرا يقترض . ولم يتمكن نور من إخفاء الحافظة بعد أن صرف النقود فقبض عليه وأودع السجن ، وشددت العقوبة لا لأن الحافظة حافظة المدير ولكن لأنه ساعى ، وكان المفروض أن يكون أمينا على الحافظة لا سارقها .

وعاد نور إلى القرية يعيش على ريع فدان وعشرة قراريط جمع ثمن أغلبها من نفحات القوم فى المديرية ، تلك التى كانت تعطى له عن كرم ، أو تلك التى كان يختلسها اختلاسا كلما غفلت عين صاحب مال عن ماله .

تلك هى الجماعة أكاد أكون قد الممت بها جميعا لم أترك منها أحدا ، وإن كنت قد تركت شيئا لم أذكره فما أظننى قد استقطت جليلا ولا أغفلت أمرا ذا بال . وهل كانت تلك اليد الدائرة بالمخدر إلا بدا تمتد عن كمية من الهمل تنظر إليها الجماعة أو لا تنظر ؟

فهى بقعة فى الأرض لا تزيد . فأسرار الجماعة كلها تدار على مسمع من هذا الشيء يكادون لهوان شأنه لا يحسن أن معهم خامسا ، فجرائم القتل أو السرقة أو تجارة المخدرات جميعا تلتقى ، ويخيل لأعضاء المنتدى أنها تلتقى إلى الأرض ، فما كانوا يحسون أن فى وسطهم أذنا تسمع . ألم أقل لك إنهم ما كانوا يحسون بصاحب الأذن جميعا فكيف بأذنه .

كان ذلك الشيء هو كمالا . وكان فى جلسته تلك يقدم إلى نفسه أمتع ما تتمتع به نفسه ، فلم يكن أحب إليه من تلك الجلسة يستمع فيها إلى هؤلاء الجبابرة وهم يروون أفاعيلهم وكيف نجوا منها . ولم يكن كمال غيبا كل الغباء فقد كان باستطاعته أن يعرف الكذب من الصدق فيما يقولون ، ولكنه كان يطلق إعجابه الضخم بأعمالهم جميعا ما وقع منها وما لم يقع . وقد كان مديحه شيئا مفروضا فى الجلسة ينتظره كل منهم ولا يجيب عليه ، وإنما يستقبله فى صمت فرحان ، ويمضى فيما كان يقول وكان أحدا لم يمدح ، أو يقاطع ، أو يبذل أقصى غايات الجهد ليبلغ بنفاقه إلى أروع الإتيان .

هذه هى الجماعة التى كان ينضم عليها بيت النمرود فى كل مساء .

وكان قد مضى على الجماعة عدة أمسيات لم تشرفت فيها بجلسة الدفراوى فى صدرها . وكانت الجماعة تقول فيما بينها إن لديه مأمورية فى بلدة ما ،

حتى كان ذلك اليوم فإذا هم يتناقلون فيما بينهم أن الفرماوى قد قتل ، فيسأل الكحلة :

— قتل ؟ من قال ؟

— انا كنت فى الزمارة ، كنت أبيع بيعة إلى الطحاوى وعرفت
أنه قتل .

— إذن فالدفراوى نجح فى مهمته !

— وهل كنت تشك فى هذا ؟

فقال الزهار فى اعتزاز :

— يد الدفراوى قاعدة لا تخيب أبدا .

فقال كمال :

— تسلم ويسلم صاحبها البطل ! . قل لى يا زهار : من

منكها أمهر فى التصويب أنت أم منصور ؟ .

ويقول الزهار :

— اظن اننى أمهر الآننى تعلمت التصويب على أصوله فى

العسكوية .

فقال نور :

— لابد أن الدفراوى سيأتى الليلة .

فقال النمروذ :

— حتما ، فهو ينجىء إلى هنا بعد كل حادثة .

فقال الزهار :

— ولكن السلاح الذى يحمله فى هذه المرة ليس سلاحا

وخيفا ، وأخشى أن تضطره المحافظة عليه إلى حمله مدة طويلة

فيضبط معه .

فقال النمروذ :

— ومن الذى يضبطه معه ؟ الحكومة ؟ ! ما أحب إليها أن



(هارب من الايام)

تتخلص من الفرماوى ، والرجل الذى استأجر الدفراوى رجل
يحمى رجاله .

فقال نور :

— لطيف بك حماه الله رجل قليل المثال ، ولكن لماذا غضب
على الفرماوى ؟ ألم يكن من رجاله ؟ .

فقال النبرود :

— كان ، وكان لطيف بك يترك له ربع خمسة أفدنة . فلما
قتل له بهجت الدلوئى دخله الغرور وراح يطالب لطيفا بعشرة
أفدنة ، وهدده بأنه سيخبر أهل الدلوئى . لطيف بك — طبعاً —
لم تعجبه الحال . أرسل لصاحبنا دون أن يعلم الفرماوى .

وقبل أن يسأل نور سؤالاً آخر دخل منصور الدفراوى جامد
الوجه يغطى مشاعره بكثير من الزهو واللامبالاة ، واستقبله
الأعضاء بكثير من الإكبار والتحايا ، وراح كل منهم يهنئه بهذا
النصر الجديد الذى أحرزه ، ولكن الزهار لم ينس موضوع السلاح
مهو يسأل الدفراوى .

— كنت فى كل مرة ترمى السلاح فى التربة ، ولكن سلاحك
فى هذه المرة من النوع الغالى .

— والله لم يهن على .

— فماذا فعلت به ؟

— وضعته فى التلغيفة وخبأته فى المقابر .

— وهل قتلت الفرماوى عند الجبانة ؟

— والله . . الرجل كان صعباً سهلاً . طلبت إليه أن نخرج

لنتمشى قليلاً فقال : والله يا منصور لولا أنك أذى ولا أشك

فيك أبدا ما خرجت معك . فقلت له لماذا ؟ قال الرجل — يعني لطيفا بك — في هذه الأيام يكرمنى إكراما غير معقول . طلبت ان يعطينى عشرة أفدنة فأعطاني خمسة عشر . طلبت جاموسة فأحضر لى جاموستين . وأنا عارفه . ويهيا لى أن المسألة فيها شيء . فقلت له وماذا فيها ؟ أأست رجله وواجب عليه أن يكرمك ؟ .

ودار بيننا الحديث ولم يلتفت إلى الطريق حتى وصلنا إلى الجبانة ، فإذا الفرماوى يقول : الله إلى أين يا منصور ؟ قلت : إلى هذه . قال : وما معنى مجيئنا للجبانة يا منصور ؟ قلت له : كلنا لابد من مجيئنا إلى الجبانة يا فرماوى ، كل إنسان لابد أن تكون الجبانة آخرته . قال : لا أفهم كلامك . قلت له : أفهمك . وأخرجت المقروطة من تحت الجلباب . حاول أن يمسك بها . كنت أنا قد أطلقت العيارين في قلبه . أراد أن يقول عملتها يا منصور فلم يكمل « منصور » وودع .

فصاح كمال على الفور وكأنما كان يضع الكلمة على شفتيه :

— سبع يا ابنى سبع والله !

وصاح النمروذ :

— يا سلام يا أولاد لو ذقتم لذة العيار الخارج من ماسورة

بندقيتك لقلب عدوك ، يا سلام يا أولاد .. مريح .

وحينئذ رأى الزهار حشرة سوداء تمر بجانب حذائه فهم

بقتلها ، فسارع الدفراوى ينهائ قائلا :

— اتق الله يا شيخ ، ماذا عملت لك ؟ لماذا تقتلها .. ؟ اتذف

بها بعيدا ولا تقتلها ؟

- وتصايح الجالسون إعجابا بشفقة الزعيم الدفراوى .
ولكن نورا لا يزال يختزن أسئلة لم يفرغها فعاد يسأل :
— ولم يسمع أحد انطلاق البندقية ؟
فقال منصور :
— الطلقات كثيرة فى هذه الأيام ، فالخفراء يحرسون القطن
ويطلقون الأعيرة فى الهواء لإخانة اللصوص .
فقال الزهار :
— والله فلوس ترمى فى الهواء ، وهل يخاف أولاد الليل من
أعيرة الهواء ؟ ! .
فقال نور :
— واين قضيت ليلة البارحة ؟
فقال منصور :
— قضيتها فى دوار عمدة الفرايحة .
فقال النمرود :
— ونعم الرجل ، لا يمكن أن يعترف بشيء أبدا . لابد أنهم
سألوه اليوم .
فقال منصور :
— وقال إننى قضيت اليوم كله معه .
فقال نور :
— فأخرج عنك فى الحال .
فقال الزهار .
— إتهم لم يقبضوا عليه .

فقال منصور :

— بل قبضوا علىّ .

فسأل النمرود :

— ولماذا ؟

فقال الدفراوى :

— المباحث سمعت من البلد أنه خرج معى ، وحاولت ان أعرف من هذا الذى أخبر المباحث فلم أستطع الاهتداء إليه ، ولكنى وراءه لن أتركه ابن الكلب . عشنا وشفنا الدفراوى يشى به الناس .

فصاح كمال :

— جارك الموت يا تارك الصلاة . . إنما قل لى يا ابا الرجال ، كيف ستصل إلى المقرطة إذا أحببت أن تصل إليها ؟
ولم يشأ منصور أن يجيب كمالا فقد رأى أنه فى هذه اللحظة بالذات أكبر من أن يجيب أى إنسان ، فما الخطب إذا كان السائل كمالا ؟ ولكن نورا أمجب بسؤال كمال فأعاده على النمرود ، فأراد أن يسكت فألح عليه نور بالسؤال ، فقال فى مزاح قريب كل القرب من الجد :

— والله يا أولاد الكلب إذا ضاعت المقرطة للأزمن ثلاثتكم بدفع ثمنها . وضحك الجميع فى فرح غامر أن منصورا يمزح . ولكن كمالا فى هذه المرة لم يضحك فقد كان ملهوفاً إلى سماع ما سيقوله منصور ، وتكلم منصور أخيراً . .

— طيب سأقدم تعميرة على حسابى لن يقول بماذا ميزت مكان المقرطة .

واشتد السرور بالجماعة من هذا التبسط ، وراح كل منهم
يمرض ذكاه ، ولكن منصورا قال فى آخر الامر :

— كلكم حمير . . الم يتذكر واحد منكم ان أختى مدفونة
فى جبانة الزمارنة . وضعت المقروطة مع أختى ، أختى الحديد
مع أختى من أمى وأبى .

وانطلقت ضحكة عالية قوية من هذه المقابلة الرائعة التى
افتر عنها ثغر البطل . وفى هذه المرة كانت ضحكة كمال أشد
قوة وأعلى ضجيجا من ضحكاتهم جميعا . إنها تحمل الكثير
من صدره وإنها تبدأ به عهدا جديدا ، وإنها أيضا — ولو أن
هذا لم يصبح ذا أهمية كبيرة — تتلقى البطل القاتل .:

- ٤ -

كان الطريق إلى القرية خاليا لا يسير فيه أحد ، فقد كانت الساعة الثالثة من عصر ، يوم حار شديد الحرارة ، ولم يكن هذا موعد عودة الفلاحين من الحقل ولا ذهابهم إليه . وكان الشمس قد وعدت الطريق في يومه هذا أن تريحه من دائسيه ساعات طويلة من النهار ، فهي ترسل أشعتها القاسية فتسفي بوعدها للطريق . إلا أن الطريق لم ينعم طويلا بهذه الدعة التي هيأتها له الشمس ، إذ ما لبث أن بدا في أوله شاب طويل القامة يسير في همة . تو شك أن تصبح لهفة ، ولا يلبث هذا الفتى أن يقترب رويدا فإذا هو متناسق التسهات ، قوى الملامح أبيض الوجه ، دقيق الفم ، وأمس العينين ، إن رأيته وهو يستقبل الألق ورأيت هذا العليف من الابتسامة الذي يترقرق على شفثيه خيل إليك أنه فتى في طريقه إلى هواه . فإن أدركت ذلك فلا تظلم ذكاهك فإنيك محق ، إنه فتى في طريقه إلى هواه .

ليس هذا الفتى غريبا عليك فقد أطلعك عليه حيرة العدة حين كان ينتظر المأمور الجديد ، وحين كان يفكر في تلك البرقية التي أرسل بها إلى المأمور ليعتذر إليه لرضه من عدم حضور

جمعية العمدة . اذكرك الآن الفتى ؟ ما إخالكَ فعلت . إنه
فخرى ابن الشيخ حسن . . فمن فخرى ؟ ومن الشيخ حسن ؟

الشيخ حسن رجل من وجوه القرية قريب إلى العمدة كل
القرب ، فقد جمعتها ملاعب الطفولة وقلعة الشيخ في الكتاب ،
ثم صحن الأزهر في القاهرة ، ثم عودتهما دون أن ينالا شهادة .
ثم جمعتها من بعد الحياة في القرية فكانا يواجهان الشدائد معا
حتى تنحسر ، فإن هي تركت عليهما بعض آثار امتدت يد كل
منهما تمسح عن أخيه اثر الشدة حتى تزول . وكانت هذه اليد
تمتد بطبيعة لا اثر فيها لكلفة فكانما هي تذود عن صاحبها — لا عن
صديق صاحبها — شرا وقع أو يوشك أن يقع . وكلما مر بهما
الزمان توثق ما بينهما من ود ، وكم حاول ذلك الزمان بالاشترار
من أبنائه أن يفسد ما بين الصديقين ولكنها صداقة ثابتة على
الزمان وأشراره ، وصمدت لا تلبث .

وهكذا عرف الناس الشيخ حسن على أنه الصديق الأول
للعمة ، فإن أراد واحد من أهل القرية أن ينال العمدة بشر احتشم
أن يفعل على مسمع من الشيخ حسن ، فقد تعودوا منه — إذا
فعلوا — شدة في الرد وعنف في الإجابة .

وكذلك كان الأمر مع العمدة إن حاول محاول أن ينال
من الشيخ حسن على مسمع منه . وقد يلين العمدة إن انتقده
أحد ، وقد يلين الشيخ حسن إن لامه لائم ، ولكن وأخذا منهما
لا يلين ولا يسكت إن ذكر الآخر أمامه بنقد أو لوم .

ولم يكن الشيخ حسن في مثل يسر العمدة ، ولكنه كان
مستور الحال له في أرضه ما يسد حاجته . وقد كان الشيخ

حسن ذكيا يعرف أن ما له إذا قسم بين ولديه فهما إلى الفقر ،
فراى أن يجعل الأرض من نصيب الأكبر والعلم من نصيب
الأصغر ، وبرر هذا التقسيم لنفسه بأنه سينفق على الأصغر
مالا جسيما مما تنتجه الأرض ، وهو فى إنفاقه هذا إنما يعدو على
حق الأكبر فى النفقة ، فهو لذلك سيعوضه عما فاتته بأن يجعل
رأس المال كله حقا مباحا له بمجرد أن يتم الأصغر تعليمه .

وقد كان صلاح هو الأكبر ومخرى هو الأصغر ، وكان مخرى
هو صاحب العلم فى تقسيم أبيه . وهكذا وجد مخرى نفسه يتاد
إلى المدرسة منذ لا يذكر متى ، ومنذ ذلك الحين الذى لا يذكره
كان يذهب مخرى إلى دوار العمدة مع أبيه حيناً أو مع صحابته
أو منفردا . وكان يلقي هناك جمعا من الأطفال ، وقد اتخذوا من
باحة الدوار ملعبا يسع كل ما يعن لأذهانهم الطفلة من ألعاب ،
فمن كرة تضرب باليد ، إلى كرة تلتف ، إلى كرة تنتاشها العصى
المعقوفة بألوان من الزجر والضرب والإلقاء ، إلى جرى لا يعرف
هدفاً ، إلى جرى هارب من الإمساك ، إلى وضع غمامة على
عينين ، إلى غير ذلك من مراح الطفولة والصبا .

ومنذ ذلك الحين الذى لا يذكره عرف مخرى درية ، ومنذ
ذلك الحين أحب مخرى درية ، أكان حبا ذلك . . ؟ إنه اليوم يعلم
أنه الحب ، ولكن أكان إذ ذاك حبا . . ؟ لم يعد يدرى ! لقد
شب هو عن مدرسة القرية وعن باحة الدوار ، فوجد نفسه
يحب درية . . حبا لم يفجأه وإنما وجدته معه كما وجد معه عينيه
وقلته ، لا يعرف كيف بدأ ولا يذكر متى .

ولكنه يعرف أن هذا الحب عوده أن يكون السابق دائما ،

علم يكن يقبل أن نسمع درية عنه أنه تخاذل فى ميدان أو سبق فى مضمار ، فهو فى دراسته أول فصله ، وهو فى احتفالات القرية خير خطبائها ، وهو فى أبناء البلدة خيرهم . إن تحدث يجهد كل الجهد أن يقتصر المديح اقتسارا ، ويجهد كل الجهد أن يأخذ هذا المديح طريقته إلى أنن درية .

لم يعرف عنه أحد أنه انحدر إلى شر ، فإن أحقق به الشباب ينزلق به عرف كيف يمنع كل شائبة أن تلحق باسمه إذا ما ذكر اسمه عند درية .

وقد كانت درية تلقاه وقد أحاطت باسمه عندها كل هذه الهالة التى أقامها حول نفسه ، فتذكى حبها له بلكبار . وكان الشباب قد حال بين اجتماعهما منفردين بعلم من الآباء والأمهات . ولكن هذا الشباب نفسه مهد لهم اللقاء المختلس فى ستر من الليل ووقت من العفة .

كانا يلتقيان فى باحة الدوار نفسها هناك تحت شجرة اظلتها صغيرين واثلت حبهما شابين ، والليل هاجع والعيون مغمضة إلا أعينهما ، والرقيب بمنأى إلا رقيباً أقامه فى نفسيهما أسل فى الغد والزواج ، وماض من الطفولة والملاعب يحمل لهما فى طواياه أنقى الذكريات .

كان حديثه يدور عن المدرسة ثم الكلية ، وكان حديثها يدور عن أتراب الباحة من اللاعبين وما صارت إليه أمورهم . فكانت تجد فى حديثه الدنيا التى لم تعرف عنها إلا ما تقراه فيخيل إليها أن صاحبها أحاط بكل شيء علماً ، وكان حديثها عنده أعمق من علم كل عالم عرثه أو لم يعرفه .

ثم ينتهى اللقاء بوعد على اللقاء . حتى إذا انتهت الإجازة انتهى اللقاء بوداع تشتبك فيه الأيدي وتتصافح القلوب وتتعانق الأرواح ، يفصل بين الجسدين أمل فى الغد والزواج ، وماض من الطفولة والملاعب يحمل لهما فى طواياه أنقى الذكريات .

هكذا كان فخرى يقضى أمسيات إجازاته ، وهكذا استطاع فخرى أن يطارد الزمن فى تعليمه ، فهو فى الطليعة الأولى من الناجحين كل عام . حتى بلغ السنة الثالثة فى كلية الحقوق وأدى الامتحان وعاد إلى القرية .

وعاد إلى الأمسيات الحالية فى باحة العمدة ، إلا أن الحديث من درية لم يعد طلقا كما كان وإنما تمسكه عن الجريان قصة فيه مترددة بين الظهور والاستخفاء ، يحيط بها حياء وخوف وإشفاق وهوى . ولم يكن عقله ليدرك هذه المعانى ، ولم يكن عقله بمطبق أن يصل إلى منابت تلك القصة ، ولكن قلبه أحسها حين كان كلامها يصل إلى قلبه . كان يجد بالحديث حمى وهو يعرفه صافيا ، ويجد به رواسب الم وهو يعرفه نقيا طلقا مصطفق المجرى حلو الأرائين .

.. درية ؟

.. هه .

.. أنت تخفين شيئا ؟

.. نعم .

.. ولم تخفينه ؟

.. لأبداً أن يختفى .

.. حتى عنى ؟

- عنك بالذات .
- لعلنى أدركه .
- ما اظن .
- بل إني أدركه .
- لا عليك .. فلنعد إلى حديثنا .
- ويل للزمان .
- وما فعل الزمان ؟
- سرقتنا .. سرق طفولتك وطفولتى ، فما عدنا نحس الأيام
- وهى تمضى .. غفلنا عن الأيام ولم تفعل .. أشرنت بك على
- النضوج وأنا بعد لم أكن تلك الورقة التى تؤكد أننى استويت ،
- وأصبحت لك أهلا .
- لا أنهم ما تقصد إليه .
- ومتى جاء الخاطب ؟
- بل لم يخطبنى أحد .
- فهناك من يسعى إلى خطبتك .
- ولا ذاك .
- فما الذى تخافين ؟
- خوف .
- مم ؟
- من الغد .
- وما فى الغد ؟
- ما أخشاه .

— وما يدموك للخشية ؟

— حديث أبى .

— أبوك ! ماذا يقول ؟

— يقول .. ؟

— نعم .

— يقول .. يقول .. أريد يا ذرية أن أزوجه من ابن الحلال ،

وأريده غنيا وافر الغنى ، وأريد لك بيتا بل قصرا فى القاهرة ..

ما رايك يا ذرية ؟

— وبماذا تجيبين ؟

— بالصمت .

— بالصمت ؟

— وماذا يمكن أن أقول ؟ !

— لا .. أما أنت فلا تقولى شيئا .. إنه أنا من سيقول ..

— وماذا تقول ؟

— فدا تعرفين .

ويقوم فخرى من مجلسه والدموع تتواهب فى عينيه ،
وتثنى ذرية إلى حجرتها حائرة لا تدري أصابته أم أخطأت
بحديثها .

ويصل فخرى إلى منزله فيجد أباه ما زال صاحيا ويجد أمه
وأخاه نائمين ، فينتهز الفرصة السانحة ويجلس إلى أبيه
لا ينطق ، حتى يسأله الأب :

— مالك يا فخرى ؟

— لى أمل عندك يا أبى .

— فقله .

— أريد أن أخطب .

— وماله . . ما أحب إليّ أن أراك متزوجا سعيدا في بيتك .
ولكن ألا تنتظر حتى تأخذ الشهادة الكبيرة ؟

— ولكن من أريدها لن ينتظر عليها الخطاب حتى أنال
الشهادة ، وأنا أريد أن أخطب فقط ثم أتزوج عندما أتم تعلمي .
— والله يا ابني لا أرى مانعا . . ومن هذه الفتاة التي لا ينتظر
خطابها ؟

— درية بنت العمدة .

— نعم من اخترت يا بني . . إنها فعلا لن تنتظر . . الحبيبة
بنت الحبيب . . نعم الخيرة يا بني .
— فمتى تخطبها يا أبى ؟

— كما تشاء .

— غدا ؟

— غدا .

— ولكن . . ؟

— ماذا ؟

— ألا يحسن أن تنتظر حتى تظهر النتيجة ، وننتقل إلى السنة
الرابعة ؟

— وهل في نجاحك شك يا فخرى . . ؟ إنك من الأوائل
دائما .

— ولكن يا أبى عندما أكون في السنة الرابعة أكون قريبا

من التخرج ، وتكون مناسبة معقولة للخطبة ، وانت تخبر عم
الشيخ زيدان بنجاحي .

— والله يا ابني كلام معقول .

— غدا سأسافر إن شاء الله ولن أعود حتى أعرف النتيجة ،
وأجيبك بخبر نجاحي إن شاء الله .

— وهو كذلك يا ابني .. على بركة الله .

ويقوم فخرى إلى فراشه فبراح إليه يكاد لا يستقر به من
فرح غامر راح يتواثب في حنايا قلبه ، يحاول أن ينام مُتذود
عنه النوم تلك السعادة العنيفة التي انتهت بها ليلته ، فبدافع القلق
عن عينيهِ بما جرى له في ليلته تلك فلا يزيده ذلك إلا قلقا ، فيقبل
على هذا القلق يكاد يعانقه فرحا به هو أيضا ، فما عاد يضيق
بشيء حتى بتلك العيون المفتحة وخيوط الفجر توشك أن تنسج
بردها من الصباح .

ويسافر فخرى في أول وسيلة تصل به إلى القاهرة ، وتمضي
أيام ثم ما يلبث أن يعود إلى هذا الطريق المؤدى إلى قريته
فيدوسه بأقدامه ، ويكسر بذلك وعد الشمس الذي بذلته
للطريق ألا يدوسه أحد في هذا الحر القاتل . ولكن ما لفخرى
ولهذا الوعد !! إنه عائذ إلى قريته يحمل في جنبه أمل حياته ..
ما مضى منها وما هو في مظلوى الغيب خبيء .

لقد نجح فخرى في الامتحان وهو اليوم عائذ لينقل بشره
إلى .. إلى من ؟

أيميل إلى درية فيحتال للغائها بكل سبيل ثم يلتقي بين يديها
نبا انتصاره ؟ أم يقصد من فوره إلى أبيه فيستنهضه إلى العدة

ليخطب درية ؟ . تكاد الحيرة تثقل الفرح الغامر الذى يتوائب
فى كيانه جميعا ، ولكن قليلا ما تلبث هذه الحيرة .. فقد انتصرت
درية .. وهل يمكن إلا أن تنصر .

دوار العمدة صامت لا صوت به ولا حركة حوله ، فالجميع
لا جئون إلى سقف يدرأ القيط عنهم . انفتل فخرى إلى باحة
الدوار وأجال نظره فى مراح الصبا وملتقى الهوى ، فما وجد
غير تلك الشجرة التى أظلت الطفولة والشباب ، والتى يطل
عليها الشباك ذو المصراعين الخشبيين اللذين يقفلان على أعواد
من الحديد الأسود .

يلجأ فخرى إلى ملاذه القديم من ظل الشجرة ، وينقر الشباك
نقرات لا تكاد تنتظم ولا تكاد تبين ، .. وتطل درية :

— من ؟ فخرى .. ؟ هل جئت ؟

— نعم .

— الدنيا نهار ، وللناس عيون !

— فبت عنك أياما كثيرة ، وعندى أخبار لا تعبأ بالدنيا
ولا بالنهار ولا بالناس ولا بالعيون .

— خير ؟

— نجحت فى الامتحان وأصبحت فى السنة الرابعة .

— والنبى ؟ . مبروك .. مبروك يا فخرى .

— مبروك لا تكفى .

— وماذا تريد ؟

— ألا تعرفين معنى نجاحى هذا .. ؟

— معناه أنك أصبحت فى السنة الرابعة .

- ومعناه أن أبى سيجىء إلى أبىك .
— إلى أبى
— نعم .
— ولماذا ؟
— لماذا ؟ ألا تعرفين ؟
— أظننى أعرف .
— فما لك لا تطيرين من الفرح ؟ ! مالك لا تكسرين هذا
الحديد الذى يحول بيننا . . ؟ أراك واقفة لا تزالين . . ديرة . .
مالك مطرقة ؟ !
— أخاف يا فخرى ؟ !
— مم ؟
— إن أبى يحلم أحلاما كبيرة لا أريدها أن تتحقق ، ولكن
أخشى أن يرفض اليوم ما نهفو إليه وينقطع ما بيننا ، وأفقد حتى
الأمل الذى أحيا به .
— أبوك يرفض طلب أبى ! . . ألا تعرفين ما بينهما من
صداقة ؟
— أعرف . . ولكن أخشى .
— فدعى الخشية الآن . . وافرحى معى .
— أرجو أن أفرح .
— فافرحى .
— الله لنا يا فخرى !
— يا شيخة . . لقد أفسدت فرحتى بتفكيرك .
— أنت محق يا فخرى ، فالتفكير — على أى لون له — يفسد

الأمرأح .. ولكن لا عليك .. اذهب أنت الآن إلى أبيك ولنسعد
الله أن يحقق آمالنا .

— إن الله أرحم من أن يفرق بيننا .

— قادر على كل شيء يا فخرى .

— طيب .. أشوئك في المساء إن شاء الله .

— إن شاء الله .

ويمضي فخرى إلى أبيه وقد تطامنت فرحته بعض الشيء ،
يفكر في درية وفي صداقة أبيه لأبيها ، وفي نجاحه ، وفي مديح
الناس له ، وفي المستقبل الذي ينتظره ، وفي حبه لدرية وحبها
له . فإذا أراد عقله أن يجمع به إلى قلة ماله رد عقله في عنف
عن هذا التفكير السخيف ، وما المال أمام الصداقة والمديح
والمستقبل والحب .. ؟

- ٥ -

قام كمال من جلسته فى بيت النمرود وقد أحس أن الله أجاب سؤاله وحقق رجاءه ومنّ عليه أخيرا بما كان منتهى آماله . فقد عرف فى هذه الليلة أين يحصل على سلاح ، وهو بعرف منذ أمد بعيد كيف يستعمل هذا السلاح ويعرف كل خطوة سيخطوها منذ أن يستعمله . وأراد كمال أن يحتفل بمستقبله الذى رسمه فى ظل السلاح وإن له المراسم خاصة لاحتفالاته ، تعود أن يقيم هذه المراسم كلما حصل على مبلغ كبير سكب عليه فرح ثرى ، أو غفلة من صاحب مال بكنته أن يسرق هذا المال .

وكان احتفاله هذا مقصورا على نفسه ، يشاركه فيه جزء آخر من الهمل يسعى فؤ القرية ضالا بلا هدى ولا مأوى إلا الاستجداء والإلحاف فى الاستجداء .

كانت « وطنية » وذلك هو اسمها هى صديقة كمال . . نشأت من المجهول وتسير إلى المجهول لا يعينها من طريقها إلا أن تسير ، ولا يعنى أحدا من أمرها أن تسير أو لا تسير . نهى بنت المجهول أبوها الليل الدامس وأما شجرة على الطريق . عثرت بها قابلة القرية فى ليلة حالكة السواد ، ولولا أن وطنية

كانت تصرخ ما أحست بها القابلة فى ليلتها تلك ، ولولا أن القابلة كانت عائدة من ميلاد شرعى متعسر ما عاشت وطنية . وكانت البلاد فى ذلك الحين واقعة تحت موجة من موجات الوطنية التى يثيرها الزعماء فرأت القابلة أن تسمى اللقطة وطنية . وأصبحت وطنية فى القرية أكثر شهرة من الوطنية ذاتها ، فإن القرية لا تجد فى كل يوم حادثا مثل هذا يوسع لها مجالات الحديث والتخمين والاستنكار ، والتعوذ بالله من الشيطان ، واستغفار الله للجاني والجانية ، وطلب الستر على العباد الصالحين وغير الصالحين . ولكن إجماع القرية كان منعقدا على أن وطنية من قرية أخرى ، إذا لا يعقل أن تحمل فتاة من القرية دون أن ترى القرية حملا ، وفتيات القرية غاديات رائحات على الملأ لا يتخفين .

وهكذا ظهرت وطنية فى القرية من ثنايا قصة خزى ومار ، واكد الناس أنها غريبة من القرية فأصبحت تجتمع إلى ذل العار انكسار الغريب . وفى وسط هذه الأمواج المتزاحمة من الهوان شبت وطنية تضارع بقبح وجهها قبح مكانتها فى القرية . وكانها رفضت الطبيعة أن تهب لها شبتا تتعزى به فهى عجفاء بلا قوام على الإطلاق ، ينتهى خط جسمها من أعلى بكمية من الشعر الأسود القوى يتأبى على كل منديل يحاول أن يلم شعثة ، تعقبه إلى أسفل جبهة ضيقة ، فعيانان صغيرتان تحيط بهما مرتفعتان ضخمة ، لابد لك أن تنعم فيها النظر حتى تتبين خلالها أنف وطنية الأمطس ، وما إن تتبينه حتى تنقف حائرا كل الحيرة ، باحثا عن المكان الذى يمكن أن يدخل منه الهواء

أو يخرج إلى ومن جسم وطنية . ثم ما تلبث أن تفيق من هذه الحيرة حين يروعك غمها ، فإنك حينئذ ستدرك أن هذا الغم لا يمكن أن يمنع الهواء داخلا أو خارجا ، فهو من السعة بحيث يحتاج إلى قوة عنيفة لتمسك به مقفلا يذود الهواء أو أى شيء يدخل أو يخرج منه . فإن استطعت أن تحول عينيك عن الغم وتنحدر بهما إلى أسفل الوجه ، وجدت ذقنا يحاول جاهدا أن يخفى ما اتسع من الغم ، فهو صغير جميل ، يفضى إلى رقبة معتدلة وإن كنت — من شدة هزال وطنية — تكاد تحسبها امتدادا لجسمها ، أو تكاد تحسب جسمها امتدادا لتلك الرقبة .

تلك كانت وطنية التي شئت في بيت قابلة القرية . وقد كانت القابلة ترى في عطفها على وطنية أمرا يزيد من عطف القرية عليها ، ويجعل لها العذر إذا هي طلبت الجدوى أن تطالب بحق النقيطة التي تقوم على تربيتها ، وكانت لا تعدم بين الأثرياء من يمد لها يدا سخية . وهكذا أصبحت وطنية — وهي النجمة على نفسها — نعمة على القابلة التي تقوم بشأنها .

ولكن الطبيعة أثبت أن تبقى لوطنية هذا الملجأ الذي كانت تتوارى فيه من خزيها وغريبتها . . فقد ماتت القابلة ولم تترك وراءها شيئا . . فقد شاعت — غفر الله لها — أن تحج . . فآخذت كل مال مخدر لديها ، وباعت كل ما عندها من حلى ، وسافرت للحج . . وأعجبها الحجاز فماتت هناك ، وخلفت بالقرية بيتا متداعيا ليس فيه إلا وطنية .

ولم تكن وطنية قد أخذت عن القابلة صناعاتها ، فإنها حين

بلغت السن التى يمكنها فيها أن تتعلم شيئا كانت القابلة قد بلغت السن التى لا يمكنها فيها أن تعلم شيئا . فقد كانت — رحمها الله — فى سنها الأخيرة راعشة اليدين بطيئة الحركة ، حتى لقد انفضت عنها المشرفات على الولادة ولم تبق لها إلا العوائد التى كانت تستجديها من الأغنياء .

وهكذا أصبحت وطنية وحيدة لا معين لها ولا عائل ، إلا يد تمتد وهم يستجدى .

وعلى هذا الطريق من الاستجداء اتصلت أسباب وطنية بكمال .

فكمال لا يجد حائبا عليه إلا وطنية ، ووطنية لم تجد رجلا إلا كمالا . فالتصلت الحاجات وتعارف الشريدان ، وأصبحت مراسم الاحتفال عند كمال أن يقضى لدى وطنية ليلة يصيب فيها طعاما يشتريه هو وتطبخه هى . ثم يبيت عندها ليلة ويخرج قبل الفجر ، فلا يحس أحد الطبخ أو المبيت .

وهكذا خرج كمال من بيت النمرود وقد حزم أمره على أن يحتفل الليلة بمستقبله بالاسم .

كان الوقت صيفا والفلاحون فى الصيف يسبرون إلى مهبق الليل ، فخرج كمال قاصدا إلى منزل عبد العزيز الجزار فوجده يدخل منزله بعد أن قضى سهرته مع إخوانه ، فاشتري منه رطلين من لحم الذبيحة التى ذبحها فى نهاره هذا ، وكان عبد العزيز قد تعود أن يبيعه رطلا بين حين وآخر فلم يدهش كثيرا لزيادة الكمية ، ولم يدهش مطلقا أنه جاء للبراء فى هذا الوقت المتأخر من الليل ، فقد تعود أن يبيعه — كلما باعه —

فى مثل هذا الموعد . ووضع كمال اللحم فى جيبه وذهب إلى
جنيئة العدة ، فوجد عبد الله حارس الجنيئة مشعلا نارا يصنع
عليها قهوة ، فاشتري منه بطاطس وطماطم وكل ما لا بد من
شرائه للاحتفال ، وقصد بحمله تحت ستار الليل إلى بيت القابلة
سابقا وبيت وطنية حاليا ، وطرق الباب . .

— من ؟

— افتحى يا بنت الكلب .

وفتحت وطنية وطنية الباب هنيئة تسرب فيها كمال إلى داخل
المنزل ، ثم اقتفلت الباب وراحت تنظر إلى ما يحمله كمال .

— خير . . أين كنت طول هذه المدة ؟

— وما شأنك أنت ؟ . انظرى . . أحضرت لك اليوم رطلين
لحمة من أحسن صنف .

— رطلين يا ابن الكلب . . ؟ لابد أنك قتلت قتيلًا !

— لا . لم أقتل بعد .

— وهل ستقتل ؟

— والله . . الله أعلم .

— ماذا تعنى ؟

— مالك أنت بما أعنى وما لا أعنى ؟ . . هيا اطبخى لنا هذا

الطعام فإنى أريدها ليلة نذكرها طول العمر .

— ولماذا نذكرها ؟

— لأننا غدا سنصبح أغنياء .

— أغنياء . . من ؟ أنت ؟

— نعم أنا .

— أنت يا ابن الضائعة ؟

— أخرجنى يا بنت .

— أنت أغنياء .. ولماذا .. ؟ وهل عمى الغنى حتى يجينك

أنت .. ؟ ألم يجد أحدا إلا أنت ؟

— ومالى أنا يا بنت ؟ .. والله إنى مجهول فى بلد الكلاب

هذه .. ولكن لا بأس .. غدا تعرفنى البلدة وتعرف قيمتى .

— وما قيمتك ؟ .. أنا والله أعرف قيمتك كل المعرمة ..

ضائع ابن ضائع ، لا خير فيك ولا منك .

— غدا حين ترين المال فى يدى تعرفين قيمتى .

— والله يا ابن الملامين لو جاء المال إلى يدك ما نظرت إلى

ولا عرفتنى .

— لماذا يا وطنية ؟

— يا ابنى أنا بنت حرام .. اتظن كلامك ينطلى على ؟؟ ؟ أنا

أعلم انى لست جميلة وأنت لا تأتينى إلا لأنك لا تجد غيرى .

— لا والله يا وطنية .. الله أعلم .

— فلماذا لا تتزوجنى ؟

— ولم لا ؟ . تتزوج إن شاء الله .

— يا أخى هيه .. النهاية .

وهكذا اتصل الحديث بين الشريدين على هذا النسق الأعلى

من الحب .. ماذا ؟ اتظننى ساخراً .. لا وحقك ؟

فما كان الحب عندهما إلا هذا السباب الذى سمعت ، وإن

كان كمال يجارى وطنية فى السباب على غير حب إلا أن سبابها



هى كان حبا داغقا عارما .. حب من لا تجد لها بين الناس إلا فتاها
هذا ، فهو عندها الاب والآخر والام والصديقة والصديق .

انتهت وطنية من طبخ الطعام واكلا ، ثم انطفأ السراج على
اثنين .. أما وطنية فمتوجسة شرا مما هددها به كمال من ذلك
الغنى الطارئ عليه ، معتقدة فى عميق نفسها أن المال سيكون
نهاية صلتها بكمال ونى هذه النهاية نهايتها هى . وأما كمال
فيحلم بذلك الغد القريب حين يمسك بالمقروطة ، ويسعى بها
إلى المجد الذى أعد لنفسه مراتبه ومراقبه .

- ٦ -

صحا العمدة من غفوة القيلولة وصلى فرض العصر وخرج إلى شرفة الدار ينتظر رفاق مسهره الذين تعودوا أن يقصدوا إليه من قبل المغرب ، ويقيموا لديه حتى موعد العشاء ثم ينصرفوا .

اقام العمدة وحيدا في يومه هذا بضع لحظات ، ما لبث أن أتبل بعدها الحاج إبراهيم الحسيني شيخ البلدة ، والشيخ رضوان خطيب الجامع ، والحاج علي صاحب الراديو الذي يجتمعون عليه كل مساء منذ أن يتركوا العمدة حتى تنتهي الإذاعة من برامجها .

وقال العمدة :

— مرحبا .. ولكن أين الشيخ عبد الودود ؟ .. أترأه ذهب اليوم في طلاق أم زواج ؟
فأجاب الحاج علي :

— بل ذهب إلى طلاق في عزبة النميلة .

وقال العمدة :

— عظيم .. إنه يفرح بالطلاق أكثر من فرحه بالزواج ، فهو يقول إنه حين يطلق المرأة من زوجها يأخذ أجرا للطلاق ، ثم يزوج الرجل المطلق من امرأة ويأخذ أجرا ، ويزوج المرأة المطلقة

من رجل آخر ويأخذ أجرا ، فيكسب من جراء الطلاق الواحد
ثلاثة أجور بينما لا يكسب من الزواج إلا أجرا واحدا .

فيضحك الضيوف الثلاثة من بعد نظر الشيخ عبد الودود ،
ويبدأ الحاج إبراهيم حديثا آخر فيقول :

— ما رايك يا حضرة العمدة في الولد أحمد أبى قطران الذى
يأبى إلا السوء دائما ؟ !

— ما له يا حاج إبراهيم .. ماذا عمل ؟ !

— عمله أسود !

فقال الحاج على :

— يعنى ما دام يرفض أن يبيع لك الفدان يكون عمله أسود .

— لا والله يا حجعلى ، إنما الولد لثيم وينتهر الفرص ، وطبعه

شين والعياذ بالله .

فقال العمدة :

— قل لى ماذا فعل ؟ .

فسارع الشيخ رضوان قائلا :

— قل لحضرة العمدة يا حاج إبراهيم ، قل له حتى يعرف أن

الولد الذى يحميه لا يستحق الحماية .

فقال الحاج على :

— سبحان الله يا شيخ رضوان ، أتنقلب على الوليد بهذه

السرعة .. أكل هذا لأنه قال إن الحديث الذى قلته فى الخطبة

غير صحيح .

فصاح الشيخ رضوان غاضبا :

— هذا لا يليق يا حجعلى .. أنا أغضب من جاهل كهذا .. ؟

ومن أين له أن يعرف صحيح الحديث من غير الصحيح .. لا
يا جعللى .. لا يا رجل قل وغيره^{١٠}

فقال الحاج على :

— لا والله لا أغير أبدا . فأحمد أبو خليل محق ، والحديث
لم يقتله النبى .

ويسأل العمدة :

— أى حديث ؟

فقال الحاج على^{١١}

— نعم إنك أنت من يفتينا يا حضرة العمدة .. اتعقل يا حضرة
العمدة أن النبى .. النبى محمد الذى هدانا إلى الصراط المستقيم ،
والذى جعل النظافة من الإيمان ، هذا النبى يقول : إذا وقع
الغاباب فى إثناء أحدكم فغطسوه ، ففى أحد جناحيه داء وفى
الآخر دواء .

وارتبك العمدة حينئذ وحاول أن يجيب ، ولكن الشيخ رضوان
سارع قائلا :

— إن هذا الحديث وارد فى صحيح البخارى .
فقال العمدة :

— البخارى لا يكذب يا جعللى .

فقال الحاج على :

— لعل البخارى لا يكذب ، ولكن قد يكذب غيره .

فصاح الشيخ رضوان :

— اتقصد أننى الكذاب يا جعللى .. منك الله يا شيخ .

فقال العمدة محاولا تهدة الشيخ رضوان :

— لا تكن عجولا يا شيخ رضوان ، فالحجج على لم يقصد إلى هذا .

وقال الحاج على مبتسما وقد أحس أنه أغرط على الشيخ رضوان :

— لا والله يا شيخ رضوان ، أنا لا أقصد أنك كذاب — لا قدر الله — ولعلك قرأت الحديث في كتاب غير البخاري ، نقل الحديث ونسبه كذبا إلى البخاري .

وهنا صاح الحاج إبراهيم :

— ما هذا يا رجل ؟ أتكلم عن أحمد الكلب فتقطعون كلامي وتتشاجرون ؟

فقال الحاج على في مزاح قريب إلى الجد :

— أما أن لك أن تنتهي عن أحمد يا حاج إبراهيم .. ؟ الجميع يعرف أنه مختلف معك على الفدان الواقع في وسط أرضك .

فقال الحاج إبراهيم محتدا :

— اسمع يا حاج على .. امرأتى طالق ثلاثا يا شيخ ، إن أنا اشتريت هذا الفدان في الحال أو الاستقبال ، أو إن أنا جعلت أحدا من أبنائي يشتريه ودفعت ثمنه سرا .. ما رأيك ؟ .

فبهت الحاج على هنيهة ثم قال :

— لماذا يا حاج إبراهيم ، لقد كنت أمزح معك يا رجل .

فقال الحاج إبراهيم :

— لا يا سيدي .. أنا رجل عشت عمري شريفا .. عينت شيخا للبلد ولكلم تعرفون ان يدي لم يصلها مليم عن طريق غير شريفا .

واحمر وجه العبدۃ ، وواصل الحاج إبراهيم حديثه :
 — نعم إنى أريد شراء هذا الفدان .. واستطيع ان اكتب
 البلاغ تلو البلاغ لأشكو أحمد أبو خليل واقتل منامه وأجعله لا يبيت
 ليلة مطمئنا .. وأستطيع ان أحبس عنه المياه فلا يراها إلا فى
 دموع عينيه .. أستطيع يا جعلى ولكنى لم أفعل لأنى شريف ..
 ولكنى أيضا لا أستطيع ان أسكت عن الحرام وأغفل على الزور
 وأستر على الإجرام ، حتى أمنع الناس ان يتهمونى بالتحيز ضد
 أحمد . أرض أحمد حرام علىّ وعلى أولادى فى حياتى .. حرمتها
 على نفسى لأقول الحق وسأقوله ..

فقال الحاج علىّ فى خجل :

— لماذا كل هذا يا حاج إبراهيم .. ؟ لماذا كل هذا ؟ لا حول
 ولا قوة إلا بالله .

وحينئذ قال العبدۃ :

— يا سلام يا حاج إبراهيم ، لو لم تكن سريع الغضب إلى
 هذا الحد لكملت محاسنك .. الا إن الطو لا يكمل .. قل لنا
 ماذا فعل أحمد أبو خليل ؟

فقال الحاج إبراهيم :

— يريد أن يتزوج سعدية أم الخير .

فقال العبدۃ :

— ولكن سعدية متزوجة !

فسارع الشيخ رضون قائلا :

— وهذه هى البلوى !

فعاد العبدۃ يقول :

— إنها متزوجة من صالح أبى سعد الله ، وكانت غاضبة
ورجعته إليه .

فقال الحاج على فى ابتسامة خبيثة :

— نعم .. نعرف يا حضرة العمدة .. ربنا يعمر بيتك .

فقال الحاج إبراهيم :

— ولكن كيف تستقر المرأة فى بيت زوجها إذا كان وراءها
إبليس يوسوس لها كل ساعة ؟ .. صالح رجل فقير لا يملك
إلا الخرقه التى يلبسها ويكد طول يومه ليعيش فى ستر . والولد
أحمد يملك فدانين وعشرين قيراطا ، ويخل يومه رائحا غاديا
إمام منزل صالح يرتديا الجلباب الحريرى ، ويا أرض انهدى
ما عليك قدى . البنت جاهلة وعقلها صغير ، فهى اليوم فى بيت
أبيها ، وقد صممت على الطلاق من صالح .. قصدنى صالح
وشكا لى الحال وقال : إنه لا يملك ما يصلحها به .

فتساءل العمدة فى عجب :

— لا يملك ماذا ؟

فقال الحاج إبراهيم فى شىء من التجدى :

— ما يصلحها به يا حضرة العمدة ، فما العمل ؟ !

فقال العمدة :

— سبحان الله يا حاج إبراهيم .. وماذا تريدنا أن نفعل ؟
امرأة تكره زوجها .. ! فكيف يصلح العيش بينهما .. ؟ هل
المعاشرة تدوم بالغضب ؟

فقال الحاج إبراهيم :

— سبحان الله يا حضرة العمدة .. وماذا يفعل صالح .. ؟

وما ذنبه .. إذا كان فقيرا .. ؟ وهل تزوجته على أنه صاحب مائة
فدان ، ثم اتضح لها أنه لا يملك شيئا ؟ .. إنه صالح .. صالح
نفسه الذى تزوجته لم يتغير .

ثم دس فى لهجته رنة عميقة وهو يقول :

— هو نفسه صالح الذى تبليت أن تصلحه أنت عليها
يا حضرة العمدة .. فهل يطلقها الآن لأنه لا يملك ما يصلحها به ؟
أحس العمدة تلك الرنة التى دسها الحاج إبراهيم ، وعرف
أنه يقصد إلى تلك الفراخ التى كان محسرها سيارة المأمور ،
ولكن العمدة يغضى عن كل هذا الغمز ويقول :

— طيب يا حاج إبراهيم ، سنرسل الآن إلى أحمد أبى خليل
ونرى إن كان يقصد إلى إثارة سعدية على زوجها ، أو أنها مجرد
صدفة .

فقال الحاج إبراهيم :

— أى صدفة يا حضرة العمدة ؟ .. إنه يرسل إليها الرسل
فى كل يوم .
وقال العمدة :

— سنرى يا حاج إبراهيم ، سنرى ..

ثم صاح مناديا :

— يا عبد الجليل .. يا عبد الجليل ..

وقبل أن يأتى عبد الجليل يصعد إلى الشرفة الشيخ حسن
وابنه فخرى فيرحب بهما العمدة ، ثم يأتى عبد الجليل فيطلب
إليه العمدة أن يرسل خفيرا إلى أحمد أبى خليل ليحضره . ويتصرف
عبد الجليل ويعود العمدة إلى الشيخ حسن :

— مرحبا أبا فخرى .. تأخرت الليلة عن موعدك .. لعل
المانع خير إن شاء الله !

فيجيب الشيخ حسن في فرحة غامرة :

— خير وأى خير .. فخرى عاد بالسلامة اليوم ، وقد نجح
في الامتحان ونقل إلى السنة الرابعة .

ويصيح العمدة :

— الحمد لله ، مبروك يا فخرى .. مبروك يا بنى .. يا ولد
هات الشربات حلوة نجاح فخرى .

ويقول فخرى في تلعثم :

— شكرا يا عمى .. بارك الله فيك يا عمى .

ويقول الشيخ حسن :

— أطال الله بقاءك يا شيخ زيدان ، وأدام المودة بيننا ،
وبارك لك في درية وأبقاها .

وراح الجالسون جميعا يباركون لفخرى نجاحه . وبدأ الحاج
على يسأله في القانون ويناقشه فيه ، فانتبه الشيخ حسن الفرصة
وقال للعمدة :

— والله يا شيخ زيدان أريدك في كلمتين على انفراد .

وقال العمدة :

— تحت أمرك يا شيخ حسن ، بإذنكم يا جماعة .

وأجابت أصوات متباينة : « تفضل » . ودخل الشيخ حسن
وراء العمدة إلى الدوار ، حتى إذا استقر بهما المجلس قال الشيخ
حسن :

— الصداقة التي بيننا غنية عن الذكر ..

فقال العمدة :

— معلوم .

فقال الشيخ حسن :

— وقد عشت طول عمرى آمل أن أجعل من هذه الصداقة

قراءة بيننا .

ومهم العمدة ما يهدف إليه الشيخ حسن فسارع يقول :

— والله يا شيخ حسن إن الصداقة التى بيننا أقوى من كل

قراءة .

وكاد الشيخ حسن يفهم أن العمدة غير متحمس لما سيعرضه

عليه ، ولكنه قال :

— ولكنى أتمنى أن تقوى هذه الصداقة بيننا برباط شرعى . .

اسمع يا شيخ زيدان . . أنا أطلب القربى منك . . أريد درية لابنى

فخرى ، فما رأيك ؟

فقال العمدة متلجلجا :

— ولكن فخرى . . فخرى . . أليس صغيرا . . وابنتى درية

أيضا صغيرة ؟

فقال الشيخ :

— والله لو كنت قلت عن فخرى إنه صغير وسكت لناقشتك ؟

أما قولك من درية إنها صغيرة ، فمعنى هذا أنك ترفض يدى التى

أمدتها إليك يا حضرة العمدة .

فقال العمدة :

— اسمع يا شيخ حسن . . ما مصير صداقتنا إذا أنا رفضت

فخرى ؟ . أتراك تزعل ؟

فقال الشيخ حسن :

— أكون كاذبا لو قلت إننى لن أزعل .. سبحان الله يا حضرة
العمدة .. بالطبع أزعل يا أخى :

فقال العمدة :

— صبرك يا شيخ حسن ، المسألة مستقبل بنتى ، وانت تعلم
ما لصنعه لأجعل لها ثروة تغرى بها ابن الحلال .. أريد لها
شابا من الأغنياء يسعدها فى حياتها . فخرى شاب عظيم ،
ولكنك يا شيخ حسن لا تستطيع أن تمدّه هو ودرية بما يهين
لهما ما أرجوه لديرية .. إنك تفكر فى ابنك .. اغضبك أن أفكر
فى ابنتى ؟

فقال الشيخ حسن :

— أنت حر فى أن تفكر فى ابنتك كما تشاء ، ولكنى أنا
أيضا حر فى أن أغضب يا شيخ زيدان .. أقد علقت بالصدقة
أملا لا تحتمله الصدقة .. فلا بأس .. ولو أننى بكلمة لا بأس
هذه أقتل ثلاثين عاما من سنى حياتى .. ولا بأس أيضا فتبنى
لا أمك غيرها كلمة ... سلام عليكم يا حضرة العمدة ..
وخرج الشيخ من الغرفة إلى الشرفة فى خطوات سريعة
غاضبة ، وعبر الجالسين وهو يقول :

— سلام عليكم يا رجال .. هلم يا فخرى .

وقام فخرى لا تكاد رجلاه تحملانه .. فقد أدرك المعنى
الذى تحمله خطوات أبيه السريعة وانصرافه المبكر ، ولكنه
لا يريد أن يصدق هذا الإدراك الذى لا يحتاج إلى كثير نكاه .

وقال الحاج على :

— الله .. إلى أين يا شيخ حسن ؟ .. ألا تشرب شربات ابنك ؟ .

فيقول الشيخ حسن وقد ابتعد عن الدوار :

— لا عليك يا حجلى ، اشربه أنت .. هنيئا إن شاء الله .

ويغوص الشيخ حسن فى تيه القرية ، وبعد حين يخرج العبد ، ولولا غبش المغيب وقلة الضوء لتبينوا فى عيني العبد احمرارا ما عهدوه قط ، ولتبينوا أيضا آثار دموع فاضت على وجه العبد ، فاضفت حيث فاضت للاء وبريقا يتالقان على جانبي وجه الشيخ الذى علاه قبار السنين .

وقال الشيخ رضوان للعبد :

— ما للشيخ حسن .. خرج وكأنه غاضب ؟ !

فقال العبد فى صوت عميق :

— لا .. أبدا .. وإنما كلفته بأمر ذهب يقضيه لى .

قال العبد جملة وكانها كان قد حفظها عن ظهر قلب ، ورددها كثيرا فى داخله قبل أن يقولها للقوم . وادرك الجالسون أن العبد لا يريد أن يفضى بشئ مما كان بينه وبين الشيخ حسن ، وإن كان الشيخ رضوان يأبى أن يصمت فهو يقول :

— لقد رفض حتى أن ينتظر شربات ابنه .

وقبل أن يجيب العبد يكون أحمد أبو خليل قد جاء فيلقى

السلام ، ولا يجيبه العبد وإنما هو يجابهه قائلا :

— ألم تجد غير سعيدة المتزوجة لتحاول الزواج بها أيها

الضائع ؟

ويقول أحمد وقدلقى على وجهه غشاء من البلاء :

— انا يا حضرة العمة ؟ .. سامحك الله يا حاج إبراهيم .
إن كان هذا لأجل الفدان فخذ بلا ثمن .
فيقول الحاج :

— يا ابني حد الله بيني وبين فدانك هذا ، .. وإن كان فداننا
فى الجنة .. أجب العمة عما سألك عنه .
فقال أحمد :

— انا يا حضرة العمة لا أصلح للزواج .
فيقول العمة ساخطا :

— لعن الله الزواج وسنى الزواج .. اسمع يا ولد ، أقسم بالله
العلی العظيم ، إن سمعت أنك ذهبت إلى الحارة التى فيها سعدية
لأقطعن أسبابك بالقرية جميعا .. أسمع ؟ :
ويرتجف أحمد من هول الوعيد ، ويقول قى حقيقيا :
— أمرك يا حضرة العمة .

ويطرده العمة فينصرف ، ويدهش القوم جميعا فإن المقدمات
لم تكن مؤدية لهذه النتائج ، ولو دروا ما كان بين العمة وبين
الشيخ حسن لعرفوا أنها ثورة لم تجد طريقا لها إلا أحمد ..
ولو كان صالح قد حل محل أحمد لبانت سعدية طالقاً فى ليلتها تلك .
وقال الحاج إبراهيم :

— وماذا يفعل صالح مع زوجته ؟ ... إنه لا يملك ما يصلحها
به يا حضرة العمة .

وكان العمة فى هذه اللحظة قد بئس من أى خير يأتيه
على يد صالح بعد أن عرف أن الحاج إبراهيم ضيق يده ، كبا

انه كان في هذه اللحظة عزوفنا كل العزوف عن المال والرشوة
فقد شق عليه مصرع هذه الصداقة الطويلة ، وقد أدرك أن
الخنجر الذي صرعت به هذه الصداقة لم يكن إلا المال الذي
تكسب منه والذي نفر عن صاحبه الشيخ حسن . . وهكذا
ألت به لحظة روحانية قلما تواتيه . فقال للحاج إبراهيم :

— اسمع يا حاج . . اذهب إلى سعادة الساعة وقل لها إن
العمدة يهددها إن لم تبت ليلتها في بيت زوجها ، فإنه سيفعل
بها الأفاعيل . . وقل لها أيضا إنه لا يريد أن يسمع بغضبها مرة
أخرى . . ألم يعد لنا عمل إلا هي وزوجها ؟
ويقوم الثلاثة داعين للعمدة .

ويقوم العمدة إلى بيته . . وتلقاه زوجته في بشاشة وابنته
في تنظر ، ولكنهما ما إن تريا وجهه حتى تصبحا كلتاهما حزينتين ،
فأما الزوجة فلأن زوجها حزين ، وأما الابنة فلأنها تدرک ما كان .
وتسأل الزوجة :

— مالك يا شيخ زيدان ؟ كفى الله الشر .

ويقول الشيخ زيدان :

— جاعني الشيخ حسن اليوم يخطب درية بنتي لابنه فخرى
فرفضت ، فمشتى غاضبا .

وقالت درية دون أن تحس :

— لماذا يا أبي ؟

ونزع الأب من السؤال .

— لماذا ؟؟ . . وأنت التي تسألين . . لماذا . . ؟ ألا تعرفين

لماذا ؟

وتثوب درية إلى نفسها قائلة :

— اتصد لماذا أغضبتك يا أبى ؟

ويقنع الأب نفسه بأن هذا هو ما قصدت إليه الابنة .

وتقول الأم :

— فخرى طيب وابن خلل .. ولكنه فقير .

ويقول العمدة :

— وهذا ما قلناه .

وتقوم درية إلى غرفتها ، وتفتح شباكها ذا السور الحديدى
وتطل على الباحة والذكريات ، والماضى الذى كان قريبا فأصبح
بعيدا ، والشجرة التى اظلت وصار ظلها لهيبا ، والليل الذى كان
نجوى فأصبح شقاء ١٩٢٥

لماذا يا أبى ؟ !

- ٧ -

الشيخ عبد الودود مآذون بلدة السلام رجل طويل القامة عريض المنكبين ، ليس بالسمين المفرط ولا هو بالهزيل الذى تأخذه العين ، جامد الوجه إن رأيته خيل إليك أن العاطفة لم تمر على وجهه فى يوم من الأيام ، يضحك إن ضحك بفيه يؤسسه حسبما يقتضى سبب الضحك ، فإن اضطره الأمر إلى التفتة خزجت من حلقه ولكنه أبدا لا يضحك من قلبه ، وإن حزن الشيخ عبد الودود فهو لا يحتاج إلى تعبير جديد يضيفه على سحنته ، فهو عبوس لا تحتاج إلى علامات أخرى لتكون حزينه .

والشيخ عبد الودود رجل نقى السيرة ، سريع إلى تصديق ما يسمعه سهل مخادعته ، فإن ألقيت إليه مثلا أن إنجلترا قد احتلت لندن أسرع يقول لك : « سبحان الله . ! أهكذا .. ؟ ومتى كان هذا ؟ » فإذا أنت لم تبسم وظللت تروى عليه كيف أن إنجلترا خدعت لندن وأوهبتها أنها تساعدها ، ثم احتلتها ولم تقبل أن تتركها أبدا ، راح يحوّل ويستعبد بالله من الشيطان .. وإذا أنت قلت له إن الإنجليز قد تدخلوا فى الأمر ، وأنهم الآن يحاولون أن يعتدوا صلحا بين إنجلترا ولندن ؟

قال لك « والله يشكر الإنجليز » . وهكذا تستطيع أن تصل به إلى تصديق آية خرافة تلقى عليها ، على شرط ألا تضحك وأنت تلقى هذه الخرافة . وهو يعلم في نفسه هذه الطيبة ، ولذلك فهو حريص كل الحرص إن أنت حاولت أو حاول غيرك أن يتحدث معه في أمر ينتهي به أن يخرج بعض المال من حزامه ، نعم حزامه وليس حافظته . إنك لا تحتاج إلى كثير ذكاء لتخدع الشيخ عبد الودود ، فلقرو عليه ما شاء خيالك من خرافات فسيصدقها ، ولكك — مهما يكن نكاؤك — لن تستطيع أن تنال من الشيخ عبد الودود قرشاً واحداً وإن كان هذا القرض ذاهباً إلى أمر فيه خير للشيخ عبد الودود نفسه ، فإن هذا الخير مهما يعظم أمره أقل شأنًا وأهون خطراً من إخراج قرض كان قد استقر غير مغزَّع ، وهذا غير قلق في أموال الشيخ عبد الودود .

والشيخ عبد الودود — كما قد عرفت — يملك عشرة أفدنة يزرعها لحسابه الخاص ، لا يؤجر منها قسراً ولا يزارع في سهم منها أحداً . وإنما هو الذي يزرع ، ويكثرى لها العمال بعد أن ينزل بأجورهم إلى أقل حضيض يمكن أن تنزل إليه . والشيخ عبد الودود — كما تعرف — ماذون البلدة ، وتلك مهنة ذات خطر وريح ، والبلدة — كما لا تعرف — عدة بلدان ، فإن للقرى عندنا ضواحي كثيرة تتبع البلدة الأصلية في الحكم والمأذونية . وهكذا كان الشيخ عبد الودود ذا موارد ضخمة تنسكب عليه من الحب والكره ، والعجيب أن هذه العواطف التي كانت سبب نعمته لا تعرف سبيلاً إلى قلبه أبداً . فقد

كان لا يعرف الحب لغير المال ، ولا يعرف الكره لغير إخراج هذا المال . المهم أن الشيخ عبد الودود كان يستقبل هذه الأموال جميعها مع ما تخرجه الأرض من محصول ، ثم يخرج لبيته ما يقيم الأود أو يكاد ، ويحتفظ بباقي المبالغ جميعها حتى تتم ثمن فدان فيشتريه .

وقد آن لنا الآن أن نروى قصة الحزام الذي عرضنا له في أول هذا الحديث . فقد كان الشيخ عبد الودود يضع هذه الأموال في حزام خاص يربطه حول بطنه ويلصقه به ما أمكن ، حتى يحسه دائما ، وحتى يظل واثقا من بقاءه حيث هو ، وحتى لا تبتعد هذه الأموال عن جسده . وهل كانت إلا جزءا من جسده ؟ وقد صار هذا الحزام مشهورا في القرية والقرى المجاورة شهرة الشيخ نفسه . لقد كان الشيخ عبد الودود حريصا كل الحرص على إلصاق هذه الأموال بكيافته ، لا يفصلها منه إلا ذلك الجلد الذي صنع منه الحزام والذي لا يملك حيلة فيه . فلو كان مستظيعا أن يضع المال على نفسه بغير حائل من الحزام لفعل . وقد يرمع الشيخ عبد الودود الحزام عن نفسه مرة في الشهر أو مرتين حين يستحم ، ولكنه — إن فعل ذلك — فهو إنما يفعل والحزام منه بهرصا ، فإنه إن سمح بأن يفارق الحزام جسمه فهو لا يسمح مطلقا بأن يفارق عينيه .

ومع هذا الخوف الراعد الذي يملك الشيخ عبد الودود على أمواله ، نجد الشيخ في عامة حياته شجاعا يخوض الليل الأسود والطريق المقترب بلا صديق ولا رفيق ولا حارس ، وإن

يكن هذا الخوض في سبيل القرش الذي يكسبه من عقود الزواج والطلاق ، إلا أنها — على أية حال — شجاعة تصمد له . وقد بدأ هذه الشجاعة منذ عين مآذونا ، وقد قام برحلاته الأولى وهو لا يكاد يقيم خطواته من فرائض ترتعد به واهل يهز فؤاده هذا . . ثم تعود الطرق المظلمة والليالي الحالكة فأصبحت العادة شجاعة ، وأصبح يقطع الطريق إلى أعمال البلدة وقراها المجاورة وحيدا بلا صديق ولا رفيق ولا حارس .

ولا يحسب أحد أن هذه الأعمال قريبة من قرية السلام لأنها قد تبعد عنها كثيرا ، والطرق إليها وعرة لا تحيط بها إلا الحقول خلت من زارعها بلا دور فيها ولا أناس ، وقد لا تخلو من العفاريث التي خلفها الوهم في كثير من مناطق هذه الطرق .

ولكن الشيخ عبد الودود كان يقطع هذه المخاوف جميعها ليعقد زواجا أو يقرر طلاقا ، وحول وسطه الأموال تكدست مئات ومئات . وفي هذه الليلة خرج الشيخ عبد الودود من قرية السلام بعد صلاة المغرب مباشرة ، قاصداً إلى عزبة النميلة الواقعة في نطاق دائرة السلام لإدارة ومآذونية . وكان خروجه هذا بناء على دعوة وافته قبيل العصر تطلب إليه أن يذهب إليها ليطلق اثنين كان قد زوجهما منذ خمس سنوات ، وكانت له فلسفته في الطلاق تلك التي رواها العبد لزوارة . ولكن العمدة نسي أن يذكر العيب الوحيد في الطلاق ، ذلك أن الشيخ عبد الودود يخرج من الطلاق غالبا دون أن يتناول العشاء الذي يتاح له في الزواج دائما . ثم إن أجره في الطلاق معلوم لا يزيد مليما عما قدرته له الحكومة ، والفلاحون اعلم

الناس بما تقدره الحكومة فى مثل هذه الأمور . أما فى الزواج فقد كان الشيخ عبد الودود بطمع إلى جانب العشاء أن يأخذ ما يزيد على أجره المعلوم .

خرج الشيخ من قريته قاصدا إلى الرجل الذى سيصيب فى حافظته ، ومن ثم فى حزامه خمسة وعشرين قرشا ثمنا له على تطليق زوجته . وأخذ الشيخ يفكر فى زهادة المبلغ الذى يتقاضاه إزاء هذا المعروف الكبير الذى سيؤديه لذلك الرجل . . إنه سيخلصه من زوجته التى آذته ونكدت عيشته ، ثم لا يصيب من بعد إلا هذه الصبابة الضئيلة من المال . ولم يكن الشيخ يعلم — ولا يعنيه أن يعلم — إن كانت المرأة هى التى آذت الرجل المطلق أو أن الرجل هو الذى آذاها ، وإنما كل همه ذلك المبلغ الذى سيجرى إلى جيبه .

وبلغ الشيخ منزل الطلاق وراح يقول للزوج :

— إن أبغض الحلال عند الله الطلاق .

وراح يقول :

— تمهل واصبر وفكر ، وسأعود إليك غدا .

وهو فى صميم نفسه يتمنى ألا يطيع الرجل نصائحه التى كان يلقيها إلقاء يجرى به لسانه فى موات ، فلا تبلغ شفتيه حتى تصبح غمقة غير مبينة يكاد السامعون — لولا سابق العلم بها — ألا ينهوا منها شيئا .

ويصر الرجل على الطلاق كما قدر الشيخ عبد الودود ، ويأخذ الشيخ الخمسة والعشرين قرشا ويترك البيت بلا عشاء — كما قدر أيضا — ويأخذ سبيله إلى قرية السلام .

الليل أسود والطريق طويل مقفر ، ولكن الشيخ عبد الودود يسير يفكر فى هذا المبلغ الجديد الذى أضافه إلى ثروته ، والذى لم يأخذ طريقه بعد إلى الحزام ، فقد تعود الا يضيف إلى الحزام دخله الجديد إلا فى البيت . وراح الشيخ يحسب وما كان محتاجا لحساب ، ولكنه يلتذ التفكير فى المبلغ الذى يرتفع كل لحظة فى حزامه .. راح يحسب .. لقد كان معه سبعمائة وخمسة وعشرون جنيها وخمسة وعشرون قرشاً . والآن حين يصل إلى البيت ، سيصبح بالحزام سبعمائة وخمسة وعشر ...

— قف .

صوت اتبعث من الليل واضحاً جلياً ، ولكن الشيخ لا يصدق أذنيه ويهم بالمسير بعد أن توقف هنيهة ، ولكن الصوت يعود مرة أخرى !

— أقول قف .

ويقف الشيخ لأنه أصبح لا يستطيع المسير ، وفى ههمة لا ينهما هو يقول :

— من ؟

— عفريت .

— عفريت ؟

— نعم .

— بسم الله الرحمن الرحيم .. الله لا إله إلا هو ...

ويصل إلى قفا الشيخ حديد صلب بارد ، ويزداد التصاق

الحديد بقنا الشيخ غيحبس عيني بندقية ملتصقة بشدة إلى قفاه
كما يلتصق الحزام بجسمه ، ويرتفع صوت الشيخ :

— الحى القيوم ، لا تأخذ سنة ولا ..

ويأمر الصوت الممسك بالبندقية فى صوت خفيض حازم :

— أخرس .

— حاضر .

— هات .

— ماذا ؟

— نقودك .

ويغمغم الشيخ قائلا :

— ليلة سوداء .. عفريت أم لص ؟

— ومالك انت ؟

— إنه مالى والله العظيم .

— إذن هاته .

— كائن العفريت أرحم .

— أسرع .

وتومض فى رأس الشيخ فكرة رائعة ، لم لا يعطى هذا
الرجل حافظته التى لا تحمل غير خمسة وعشرين قرشا وثلاثة
قروش كانت فيها قبل أن يخرج من البيت ؟ والرجل لن يعرف
من أمر الحزام شيئا فتصبح المصيبة هينة . وأين ثمانية وعشرون
قرشا من سبعمائة و .. وقبل أن يكمل الشيخ تفكيره يصيح به
حامل البندقية وقد أصبح فى مواجهة :

— أسرع .

ونظر الشيخ مليا في اللص الذي يهدده فلم يتبين منه في
غيش المساء غير وجه يحيط به اللثام من جميع نواحيه ، وقد
حمل بندقية قصيرة مقروطة ووضع فوهتها في صدر الشيخ :
وعاد اللثام يقول :

— أسرع .

وأخرج الشيخ حافظته وهو يقول في تظاهر بالحزن :

— تفضل !

ويأخذ اللثام الحافظة ويهد يده مرة أخرى :

— أسرع .

— ماذا ؟

— هات .

— ماذا ؟

— الحزام .

— لماذا ؟

— الحزام .

— أي حزام ؟

ويهد اللثام يده إلى بطن الشيخ مبد الودود ، ويضع يده من

فوق الجلباب على الحزام .

— هذا الحزام .

— يا ابني اتق الله .

ويدفع اللثام المقروطة في صدر الشيخ وهو يقول :

— أسرع وإلا تقتلك . . أسرع .

— يا أخى حرام . . حرام . . خذ نصف ما به .



— هات الحزام .. هات الحزام قلت لك .

ومد اللثام يده إلى جلباب الشيخ عبد الودود وجذبه منه
جذبة قوية ، شقت الجلباب عن قميص أبيض أصبح هو الحائل .
الوحيد بين الحزام وبين يد الرجل .

— هات الحزام .

وتملك الشيخ عبد الودود نفسه بعض الشيء وهو يقول :

— والله يا بنى انا لا أستطيع أن أعطيك الحزام بيدي ،
فخذة أنت إن شئت .

— فارفع هذا القميص .

— لا أستطيع يا ابنى .. يدى لا تقوى .:

ويمزق صاحب اللثام القميص أيضا ، ويفك أربطة الحزام
فيخلص إليه ، فيدفع الشيخ بعيدا عنه ويصيح فى وجهه :

— امض .. اذهب الآن .

— اذهب ؟

— أسرع .

يقولها ويطلق عيارا فى الهواء فينكفىء الشيخ من الرعب ،
ولكن قدم صاحب اللثام تعاجله بركة فيقوم مهولا بطريقة
إلى البلدة ، ينكفىء فيحس قدم اللص التى ركلكه فيقوم ثم
ينكفىء ، ويقوم حتى يدخل البلدة ذاهلا هلعا ينكفىء لا يسمع
حتى تلك الأعيمة التى تعالت متكثرة بعد العيار الذى أطلق
إخافته . فقد ظن الحراس أن هذا العيار قد أطلق لإيقاظهم ،
راحوا يظهرون مقدار يقظتهم بأعيمة عالية الصوت تجاوب
صداها فى وسيع الفضاء .

- ٨ -

رجع المشايخ الثلاثة من عند العبدۃ وقد أذهلتهم فى ليلتهم تلك أمور كثيرة . عجبوا أول ما عجبوا من الحاج إبراهيم وغضبه ، وقد تعودوا أن يمزحوا معه فى شأن هذا الفدان وتعود هو مزاحهم ، وكان يقبله لأنه لا يمسى حقيقة نفسه ، فقد كان يدرى أن يده لم تمتد يوما لغير الحق ، وقد كان يحسب إخوانه يدركون أنه لن يرقى لنفسه إلا هذا الحق الذى ألزم به نفسه . ولكنه حين رأى مزاحهم يلتقى فى مواطن الجد ، اتخذ هذا الموقف الحازم والزمهم حدا يقتنون عنده . وعجبوا من إقبال الشيخ حسن الضاحك المستبشر ثم انصرافه الغاضب العجلان ، ثم عجبوا من ثورة العبدۃ بأحمد أبى خليل ، وميله إلى صالح بعد أن عرف فقر صالح وعسر يده ، ومع تمام علمه بغنى أحمد وكرمه إذا اقتضى الأمر كرمه . وراحوا يتساعلون فى أنفسهم أهى غمزات الحاج إبراهيم حركت فى العبدۃ بقية عفة ، أم أن العبدۃ غاضب الشيخ حسن فضاق صدره وافرغ غضبه على أحمد . . أيا كان الأمر فقد مشى ثلاثتهم صامتين يدير كل منهم الأمور فى رأسه ولا يبين عنها .

وعلا ضجيج النساء من حولهم فازداد صمتهم ، فليس

لأمسيات الصيف في الريف سكوت ، فثمة الكلاب النابحة تتناوب النباح كأنها موكلة بالسكون ألا يسكن ، فإن مرت هنيهة لم يجب فيها كلب كلبا علا نقيق الضفادع وتتصاعد من كل أقطار الأرض ، فيخيل إليك أنها تعيش في البيوت والطرق والحقول وكل مكان ولا تقصر سكناها على الترع ومواطن الماء ، وقد يطيب لها من حين إلى حين أن تقطع ضوءها ظفرة واحدة ، ومن ثم تتبين صوتا منفردا كان يخالط أصواتها فيكونان معا نغما واحدا تعود به أبناء القرى ويضيق به زوارها . إن صمت الضفادع صات هذا الصغير وحده ، فهو صغير تسلخت نغماته ودقت نغما فيه من حلاوة الصغير شيء . إنها المراسير تشارك في العدوان العنيف على سكوت القرى .

وكان المشايخ الثلاثة غارقين في صمتهم تصل إليهم هذه الأصوات فلا يحسون من أمرها شيئا ، فهي توافيهم مع غروب الشمس فهم قد عودوها كما عودوا أن تغرب الشمس فيصل المساء ، ولكن صوت طلق ناري اندفع إلى آذانهم فيبعدهم بعيدا وغير قريب أيضا ، ثم تبعه طلق ثان فثالث فرباع ، فتضاحك الحاج على وقد انتوى أن يقطع صمتهم الذي طال به الأمد :

— يا أخى أولاد الكلب هؤلاء لا يكونون عن إطلاق النار في الهواء ، فإن هاجمهم لص ولوا الفرار . . أترأهم يحرسون القطن من الهواء الذي يصوبون إليه أعينهم ، والله صدق من قال :

وإذا ما خلا الجبان بأرض طلب الظعن وحده والنزلا
فقال الشيخ رضوان :

— يا أخى أنت لا يسلم أحد منك أبدا .. هل أنت مسحوب
من لسانك يا أخى ؟ .. وماذا فعل بك هؤلاء الخفراء أيضا ؟
إنهم ينبهون بعضهم بعضا حتى إذا جاء اللص ...
فقاطعه الحاج على قائلا :
— يفرون جماعة .

— يا رجل حرام عليك .. أنت حاج !
— وما دخل الحج بهذا .. ؟ ! أكنت حججت حتى لا أقول
الحق ؟

— أى حق ؟
— حقا على .
— وأنا مالى حتى أو حقا .. أتراك فرغت من الخفراء
وتريد أن تستدير إلى .

— لا والله ، ولكنى أعرف أنك تحمل لى بعض الغضب فى
نفسك منذ النقاش الذى دار بيننا عند العمدة ، وأنا غلطان .
— النهاية يا جعلى .

— لا تكن غضوبا .. أنا غلطان .. أنا غلطان لك وللحاج
إبراهيم .

وحينئذ أجاب الحاج إبراهيم فى شيء من عدم المبالاة :
— يا سيدى العفو ، لا غلط ولا يحزنون .
فقال الحاج على وقد لطف من صوته بعض الشيء :
— والله ما كنت أعلم أنك ستغضب كل هذا الغضب ، فقد
تعودت أن أمارحك بشأن هذا الفدان .
فقال الحاج إبراهيم :

— المزاح شيء والجد شيء .. النهاية سأترككم هذا لأذهب
إلى البنت سعيدة وأخذها إلى بيت زوجها .

فقال الحاج على :

— وسنأتى بعد هذا إلى الدكان .

فقال الحاج إبراهيم :

— سأرى .

فأقسم الحاج على عليه أن يأتى ، وراح يكرر له الاعتذار
بعد الاعتذار حتى لان جانيه ووعدته أن يلحق بهما . ثم تركهما
وحداد إلى طريقه ، وأكملها هما طريقتهما إلى الدكان وما كادا
يجلسان به حتى أقبل إليهما أحمد أبو خليل ، وما إن رآه الشيخ
رضوان حتى همّ بالقيام فإذا أحمد ينكب على يده يقبلها .

— لماذا يا عم الشيخ رضوان ؟ ماذا فعلت لك حتى تغضب
على كل هذا الغضب ؟

فلوى الشيخ رضوان رأسه من محدثه ، وقال الحاج على :

— كيف تسأل ؟ ألا تعرف ؟

فقال أحمد :

— ليس بينى وبين عمى الشيخ رضوان شيء .. إلا إذا
كان غاضبا ، لأنى سألته عن صحة حديث لم أكن متأكدا منه ..
ثم تأكدت أنه صحيح وأرد فى صحيح البخارى .. فهل حرم
السؤال يا عم الشيخ رضوان ؟ .

فقال الشيخ رضوان فى خيلاء أن وضع علمه بعد أن كان
الحاج على ينكره عليه وقال :

— يا بنى مالك والعلم .. ؟ !

- فقال الحاج على :
- أوجدت الحديث فى البخارى ؟
- فقال أحمد :
- أى نعم ؟
- فقال الحاج على :
- ونعم يا ابنى بالعلم .
- فقال أحمد :
- وهل يستغنى أحد عن العلم يا عم الشيخ رضوان ؟
- فقال الشيخ رضوان :
- النهاية ، غفر الله لك .
- وسأل أحمد الحاج على :
- فأين عمى الحاج إبراهيم ؟
- فقال الحاج على فى مزاح قريب من الجد :
- أبعد عنه . . لم تعد بينكما صلة منذ اليوم . . لقد أقسم
- طلافا ثلاثا الا يشتري منك مدانك مهما يكن ثمنه .
- فنثر أحمد يده وقال استهتار :
- يا عمى صل على النبى . . غدا يجد ألف شيخ وشيخ
- يؤكدون أن يمينه غير محرجة ولم تقع ، وأن لا بأس عليه أن
- يشتري الفدان ما شاء له الشراء .
- وهنا صاح الشيخ رضوان فى غضب :
- أى مشايخ تعنى يا ولد ؟
- فعاد صوت أحمد إلى سابق جده :
- استغفر الله يا عمى الشيخ رضوان . . إنما أقصد المشايخ

أصحاب المصالح الذين يبيعون ذمتهم للصالحهم .. مثل الشيخ
عبد الودود وأمثاله .

وهذا الشيخ رضوان وضحك لأحمد . ولكن الحاج على
قال :

— لا والله ما أظن الحاج إبراهيم إلا صادقا في يمينه وفي
ميته .

فقال أحمد :

— والله ما صادق إلا أنت يا عمي الحاج على .. إنما أنت
رجل نقي السريرة صافي النفس .. النهاية .. ما الذي أثار على
العمدة هذه الثورة .. ؟ ! أكل هذا من أجل الحاج إبراهيم ؟
أتراه جازت عليه حيلة اليمين بالطلاق فاعتقد أن الحاج إبراهيم
صادق فيما ذهب إليه من أنني أغازلُ سعدية .

فقال الحاج على :

— والله أنا أرى في الأمر سرا ، وخاصة بعد أن صارحه
الحاج إبراهيم بأن صالحا لا يملك شيئا .. فغضبه كان وهو
يائس من صالح كل اليأس .

وقال الشيخ رضوان :

— والله العمدة رجل طيب وابن حلال ، وقد رأى أن الاعتداء
على الحرمات أمر لا يجوز .

فقال أحمد :

— الله يشهد ما أعتديت أبدا .

وقال الحاج على :

— إنه رجل طيب فعلا ، ولكن أسعاره غالية جدا .

فقال الشيخ رضوان :

— يا رجل اتق الله .. أغلب العبد على هذه الحال .

فقال أحمد :

— والله لقد كنت مستعدا له استعدادا ضخما ، ولكنه قطع

رزقه بيده .

فقال الشيخ رضوان :

— ولماذا كان استعدادك ، لابد أنك كنت تنوى شيئا .

فقال الحاج على :

— ارحم الولد يا شيخ رضوان ، فقد أعد لك هدية عظيمة .

فقال الشيخ رضوان :

— إني أقول الحق وأمرى لله .. العبد كان محققا لليلة .

فنظر أحمد إلى الحاج على مستنجدا ، فقال الحاج على :

— أكل هذا لأنه أوصى بك لتبقى معلما في القرية ؟ .. تل

لي بذمتك كم دفعت له من أجل هذه التوصية ؟

فقال الشيخ رضوان :

— لا شيء وأقسم بالله العظيم .. بل إنه ..

وقطع الشيخ رضوان جملته في حين أكملها الحاج على :

— نعم .. نعم .. بل إنه زاد مرتبك كخطيب الجامع ..

وما عليه أن فعل .. عشرة أفدنة موقوفة على الجامع يأخذ ريعها

جميعه ولا يدفع إلا أجرك ..

فقال الشيخ رضوان :

— يا رجل اتق الله ..

فقال الحاج على لأحمد :

- واين هديتي يا سى أحمد ؟
فقال أحمد :
- تحت الأمر والإذن يا عمى الحاجعلى .
فقال الشيخ رضوان بصوت فيه دلال :
- اى هدية يا ولد ؟
فقال أحمد وقد أحس أن مطلبه مئى يده :
- هدية على ذوقك يا عمى الشيخ .. قطعة حرير قفطان
لا مثيل لها ..
- فقال الشيخ رضوان مسرعا :
- هديتك مقبولة يا أبا خليل .. والله إنك رجل طيب وابن
حلال يا سى أحمد .
- فقال أحمد وقد غمره الفرح :
- أنت الخير والبركة يا شيخ رضوان .. وما هذه
الهدية .. ؟ ! الهدية الحقيقية ستراها عندما يتم المطلوب بإذن
الله .
- فضحك الشيخ رضوان وقال من خلال تهقته :
- وما هو المطلوب يا ترى ؟
فقال أحمد مئى صوت أسيف جاد :
- هل يرضيك يا عم الشيخ رضوان أن تعاشر زوجة زوجها
وهى تكرهه أشد الكره ؟ وهل يرضيك ويرضى الله أن تعاشر
زوجة زوجها وهو لا يقدم لها ما يقوم ببيته ؟ وإنما يلقي مئى

يدها بضعة قروش ضئيلة فى كل موسم ولا يحضر لها ما يكفيها من الذرة ، ويأمرها أن تعمل طول يومها إن لم يكن فى جمع القطن فهو يأمرها بأن تخبز للناس خبزهم لقاء بضعة أرغفة ، فتظل — وهى الفتاة فى ربيع العمر — بين الدور والحقول ، شردة ، ولو كانت تحب زوجها لهان الخطب ، ولكنها تكرهه يا عم الشيخ رضوان ولا تطيق أن تراه .. ارحمها يا عم الشيخ رضوان .. ارحمها الله .

فقال الشيخ رضوان :

— وماذا يمكن أن أفعل يا أحمد ؟

فقال الحاج على :

— لا حول ولا قوة إلا بالله يا شيخ رضوان ، إننا نحن من نفعل .. وما مائدة صداقتنا للعمدة إن لم نستطع أن نقوم بمسألة صغيرة مثل هذه ؟

فقال الشيخ رضوان :

— النهاية يا بنى ، ربنا معنا .

فقال أحمد :

— أطال الله معرك يا عم الشيخ رضوان .. وبارك ..

وقبل أن يتم جملة دخل إلى الدكان الحاج إبراهيم الحسينى ، وما إن يرى أحمد حتى تعود إلى وجهه تلك الغماسة التى خرج بها من عند العمدة ، ويلقى الحاج إبراهيم تحية ما إن سمعها الثلاثة حتى أدركوا ما بنفس الحاج من ضيق ، ولم يسكت الحاج عند ذاك بل هو يقول :

- ماذا ؟ ألم تجدا إلا هذا الولد لتسلمراه ؟
وقبل أن يجيب أحد سارع أحمد قائلا :
— ماذا فعلت لك ياعم الحاج إبراهيم ؟ .. إن كان عن
الفدان ..
فقاطعه الحاج إبراهيم قائلا :
— ألم يخبرك صديقك أنني اقتسمت يمين طلاق إلا أشتري
هذا الفدان مطلقا ؟
— ومع ذلك أنا تحت أمرك ، أنا والفدان وكل ما أملك .
ولكن لماذا أنت غاضب علي ؟
— يا ابني أنا أغضب على كل إنسان لا يراعى الله في أعماله .
— وأنا ماذا فعلت لك ؟
— فعلت ما فعلت والسلام .
— والله يا عم الحاج إبراهيم إنك لو عرفتني على حقيقتي
لوجدتني كما تحب . فأننا كريم ويدي مفتوحة ، وخدام الأصدقاء
ولا أبخل مطلقا .
— يا بني الكريم كريم على نفسه .
— وعلى أصدقائه أيضا يا عم الحاج إبراهيم .
— لا يهمني يا بني كرمك أو بخلك .
وهنا قال الحاج على :
— ماذا يا أحمد ؟ . أظن أن الحاج إبراهيم يهيه كرمك ؟
فقال أحمد :
— لا والله ، غيبي أعرف الحاج إبراهيم منذ أنا طفل صغير ،
ولكن بودي أن يقبل الهدية التي أعددتها له .

فقال الحاج إبراهيم فى غضب حاول جهده أن يكبته :

— أنت يا ولد تحاول رشوتى .

— حد الله بينى وبين ذلك يا عم الحاج إبراهيم ، وإنما أقدم
إليك هدية صداقة وصلح بيننا .

فقال الحاج إبراهيم وغضبه مكبوت ما زال :

— اسمع يا جعلى ، لقد الححت علىّ أن أحضر إليك وقد
جئت حتى لا تغضب ، ولكن إن كنت قد جئت بى لاهان فى
مجلسك ، ولازمى بأئنى لص يرشونى مثل هذا الغلام ، فاسمح لى
أن أقوم .

وقبل أن يجيب الحاج على سارع أحمد قائلا :

— لا تغضب يا عم الحاج إبراهيم فإنى أنا الذى سأنصرف ،
ولكن الذى أعرفه أن الهدية تسمى رشوة إذا كان مقدمها يريد أمرا
عند من يقدمها إليه ، ولكننى لا أريد منك شيئا .

— لعلك لا تريد شيئا ، ولكنك تريدنى أن أغض عينى عنك
ولا أرفعها ، وكيف يمكننى أن أرفعها وقد خفضتها بهديتك ...
لا يا بنى ، أنا رجل كبير وأخلاقى تكونت ، ولم يعد فى الإمكان
تغييرها . لا يا بنى لا .. أفنأتى الله عن هدايك .

— أمرك يا عم الحاج إبراهيم .. أمرك .. سلام عليكم .

وقبل أن يخرج أحمد من الباب تدخل إلى الجمع امرأة
عرفها الجميع ، فتصايحوا بين ترحيب وعجب أن تقصد إليهم
زوج الشيخ عبد الودود وما تعودوا أن يروها فى غير دارها ،
وقد اتخذت من الثياب ما تواضعت النسوة على ارتدائه إن هن

أزمعن أن يلتقين بالرجال أو يخرجن إلى الطريق ، فهم لم يروها إلا فنى ثيابها السوداء مسدلة عليها حتى أخصم قدميها وقد ألقت على رأسها خمارا ، أما الآن فهي تطالعهم وقد ارتدت جلبابا ملونا فاقع الحمرة نبتت فيه ورود خضراء ، واتخذت على رأسها منديلا تلقى المكان . فقد كان وجهها أصغر من أن يسع هذا الذعر الذىلقى عليه ، فامتد هذا الذعر إلى منديلها بل إلى جلبابها المنتفض .

— أدركونى .

— خير يا أم إسماعيل ؟

— الشيخ عبد الودود .

— ماله ؟

— لا أدرى .

— ماذا تعنين ؟

— كنت أنتظره فإذا هو يدفع الباب ، ثم يتكفى على وجهه وهو يقول .. سرقنى ، ضربنى ، المقرطة ، الحزام ، سبعمائة وخمسة وعشرون جنيها وخمسة وعشرون قرشاً ، والمحفظة وثمانية وعشرون قرشاً ، سرقنى .. فرحت أربته وأحاول أن أهديء من ثأرته ، ولكن الذى تملكه يابى أن يزول عنه ، ثم قال فجأة : اذهبى إلى دكان الحاجملى وأطلبى إلى الحاج على والشيخ رضوان والحاج إبراهيم أن يأتوا إلى .

فقال الحاج إبراهيم :

— لا حول ولا قوة إلا بالله .. لا حول ولا قوة إلا بالله ،

هلم يا رجال .

فقال احمد أبو خليل :

— هلم .

فقال الحاج إبراهيم :

— وأنت إلى أين ؟

— معكم .

— لا إن الرجل لم يطلبك وما أظن الزيارة مناسبة في مثل
هذه الحال . . سنذهب نحن الذين طلبنا

— أمرك .

وخرج القوم من الدكان ، وساروا طريقهم بعد أن أقفل الحاج
على أبواب دكانه .

وما إن بلغوا بيت الشيخ عبد الودود حتى تقدمتهم زوجته
إلى مكان زوجها ، وهناك التقوا بالرجل لم يبق منه إلا دعر
والدم .

وقص عليهم الشيخ عبد الودود ما كان من أمره وأمر
اللس في كلمات لا تكاد تكتمل وهي تخرج ، وإنما هو يتفأ
في منتصف الكلمات وقد بدأ عليه أنه يريد أن يلقي بحمله إلى
أى إنسان ، ولكنه بعد أن يفرغ من القصة ويضع يده على
موضع الحزام يحس بحمله كاملاً لم ينقص . . بل لعله زاد . .

ولم يصبر الحاج إبراهيم بعد أن فرغت القصة بل هو يقوم
إلى العمدة يوقظه ، ولا تلبث البلدة أن تصبح كلها في يفتلة
كاملة ، فجميعهم مشغول ولا شغل ، وإنما هم يروون ما سمعوه
ويزيدون عليه ما امتد بهم الخيال ؟ ولم يأت وكيل النيابة حتى

أصبح المبلغ المسروق من الشيخ عبد الودود سبعة آلاف جنيه ،
وأصبح الشيخ عبد الودود بلا يد بعد أن قطعها اللص ، وبلا
عقل بعد أن سلبت النقود عقله وهى ترحل عنه إلى اللص الذى
هاجبه .

وجاء وكيل النيابة ومعه مأمور المركز ، مُقد كان قطع
الطريق أمرا تهتز له أركان الأمن . وبدأ وكيل النيابة التحقيق
بينما بدأ المأمور مساوماته مع العهدة عما سيقدم للعشاء واللفطور ،
فإن التحقيق سيطول إلى الصباح .

وانتهى التحقيق بقيد السرقة مع كل الظروف المشددة التى
لازمتها ، من ظرف الليل إلى استخدام السلاح إلى غير ذلك . . كل
ذلك قيد ضد مجهول .:

وبهذا القيد بدأت فى القرية فترة جديدة من الزمان لم ترها فى
ماضى أيامها ، ولم تفكر فى يوم ما أنها ستلتقى بها على طريق
الحياة .:

- ٩ -

كان الليل قد خيم على القرية . فلا يقطع ظلامه إلا نار تحلق حولها القوم يعدون فيها جذوة الفحم التى لا تصلح الجوزة إلا بها ، وقد يعدو على ظلام الليل بصيص من ضوء المصباح يتسلل من شباك إحدى الدور ، فيمر بالظلام يكاد الظلام لا يحسه من غرط الضعف الذى يعانيه .

مرّ كمال بهذا الظلام وبهذه الخيوط المتهاقنة من بصيص المصابيح ، يعبر كل شيء إلى ظاهر البلدة حيث يريض بيت النمرود ، وكان قد انقطع عنه أيما كثرة فرغ فيها إلى المقروطة يستثمرها فتدر عليه المال الوفير . حتى إذا استولى الرعب على القرية والقرى المجاورة أحس أنه قد آن له أن يقطع إجرامه بعض الشيء حتى يعود إلى الناس بعض اطمئنانه ؟ فيعود إليهم هو مئ غفوة من هذا الاطمئنان فينال ما تصبو إليه نفسه . . . خطة كان قد رسمها منذ أمد بعيد فهو ينفذها لا يحيد عنها قيد شعرة .

فإنه حين أصاب مبلغ الشيخ عبد الودود لم يكتف به ، بل أنه فى الليلة التالية مباشرة ، هاجم عبد الرحمن أفندى السلامى الرجل الذى ينافس العمدة على المنصب ، والذى يملك فى القرية

١٢٩

(هارب من الأيام)

عشرين غدا ، والذي لا يحمل فى جيبه أقل من مائتى جنيهه ويودع البنك مئآت أخرى . وقد كان يحمل هذه الجنيهات ليباهى بها الناس كلما اجتمع حوله الناس ، فما كان له شيء يباهى به إلا هذه الاموال .

وكان كمال قد عرف أنه قد ذهب إلى القاهرة وأنه سيعود إلى القرية عند المساء ، وكان يعلم أنه يقطع الطريق وحده من المحطة إلى القرية ، والطريق من المحطة إلى القرية محفوف من أهد جانبيه برمال الصحراء وتلالها .

وكان هناك تل يعرفه كمال ، ومن وراء هذا التل خرج كمال وقطع الطريق على عبد الرحمن ، فأصاب منه فى ذلك اليوم المائتى جنيهه التى تعود أن يضعها فى جيبه ، وأصاب منه جنيهين وقروشاً هى بقية جنيهات خمسة انتهت الخمر وتذكرة القطار منها ثلاثة جنيهات إلا قليلا .

وهكذا وقعت الحادثة الثانية فى موعد لم تنتظر القرية أن تقع فيه ، فما عودوا أن تقع حادثتان على شخصين فى القرية فى ليلتين متتاليتين .

وقدبت الحادثة ضد مهجول . . !

وفى الليلة الثالثة كان الخوافة استاورو تاجر القطن خارجا من القرية فى طريقه إلى القطار الأخير . وكان الليل أسود ولكن الخوافة كان مطمئنا لأن خفيرا نظاميا من قبل العمدة كان يرافقه . ولكن الخفيير النظامى كان أكثر جبنا من الخوافة حين وضعت المقروطة فى ظهره ، وحين طلب كمال من الخوافة



ان يعطيه ما يحمل من المال . وتسلم كمال المال وأمر الخواجة وحارسه ان يعودا أدراجهما إلى القرية ، وأطلق خلفهما عيارا جعل الاعيرة تنطلق من الخفراء ، وجعل سكان السلام يطمنون إلى ان الامين من حولهم يقظة مفتحة ، تحيطهم بالأمن الرامد وبالسلاح القاتل لكل من يحاول ان يعدو عليهم ، وما عرفوا ان هذا العيار إنما كان إعلانا عن جريمة ثالثة تقع في الليلة الثالثة .

... ما عرفوا ذلك إلا حين عاد الخواجة استاورو مع الخفير ، وقد أخذ الهلع بمجامع الخفير بينما راح الخواجة استاورو يهدىء من روعه ، فما كان يحمل غير خمسين جنيها وهي أقل من أن يفقد رجل مثل الخفير حياته من أجلها ، فقد كان يوشك من الخوف أن يموت .

كان كمال قد أعد الخطة بدقة . ومن ذلك الذي يظن أن قرية واحدة يعتمدى على ثلاثة منها في ثلاث ليال متوالية ؟ وتبدت الحادثة ضد مجهول .

وهل كان كمال إلا مجهولا ؟ ومن ذلك الذي يظن أن كمالا يستطيع أن يعتمدى ، وهو من عاش عمره مرعى للاعتداء ، وموطئا للهوان ، وصوتا أجوف يشيع ميتا أو يزف عروسا ؟ وفي هذا المجهل ، وفي هذه الزاوية المتوارية عن الأعين ، وفي هذه الغمرة من حقارة الشأن ، كان كمال قد أعد الخطة وانتفع بكل شيء ، حتى بهذا الاحتقار الذي كان يتمتع به ، فقد كان ينواري في هذا الاحتقار بعد كل جريمة فلا يفكر أحد فيسه ،

وتقيد الحادثة ضد مجهول . فقد كان جبابرة الليل فى القرية
فى مكانهم عند كل حادثة ، وكان الجميع يرونهم حين تأتى إليهم
انباء الحوادث فيجدونهم مذهولين معهم . ولا مجال لشك فى
صدق ذهولهم فقد كانوا معهم .

وإن خطر لواحد ممن كان يراهم ومعهم كمال أن يسأل
عن كمال أين هو ؟ أنبعت أحدهم قائلا فى صوت من يضيق بالإجابة
على تافه الأمور فى وقت لا يتفق مع هذه التفاهة : « إنه مريض ؛
لقد أرسل إلينا وطنية تخبرنا بذلك منذ أيام ... » .

الم اقل لك إنه كان قد أعد الخطة فاحكم إعدادها ؟ لم
يغفل عن صغيرة منها منذ ذلك اليوم الذى أبل فيه أن يستولى
على سلاح .

انتظر كمال بعد هذه الحادثة الثالثة يومين آخرين لم يخرج
من بيته أبدا . وهو حتى فى أيام الجرائم الثلاث كان لا يترك
بيته ، إلا ريثما يتم جريمته ثم يعود .

وقد رأى أنه يكفى للمرض خمسة أيام ، ورأى أنه لابد له
أن يرى الحفراوى والنمرود ونورا والزهار ، فإن له معهم شأنا
فى ليلتهم تلك . أى شأن !

مشى كمال يفكر فيما كان من أمره وفيما سيكون منه ،
ولكن هينة أقل ارتفاعا من ضجة الكلام وأعلى خفوتا من الهمس
قطعت عليه تفكيره .

نظر كمال إلى مبعث تلك الهينة فرأى موكبا صغيرا يسعى
فى الطريق مارا بين أكوام السماد ، وما لبث أن تبينه على ضوء

ثار بلغها فاتضح له عن درية تسير إلى جانب فاطمة ، وقد تقدمهما خفير نظامى يشرع البنديقية إلى الفضاء . ووقف كمال دون أن يعرف سببا لوقوفه هذا ، أو لعله وقف دون أن يعلن إلى نفسه السبب الحقيقى الذى من أجله وقف . واقترب الموكب الثلاثى الصغير .

— مساء الخير يا ستى درية .

— مساء الخير يا كمال .

ومشى كمال خلف الركب دون أن تعلن نفسه إلى نفسه السبب الحقيقى الذى من أجله مشى .

— خير يا ستى درية ، الدنيا ليل ولا قمر ، وأوشك الجو أن يكون باردا ، والحالة خطيرة فى هذه الأيام . فإلى أين ؟

— والله سأذهب إلى عمك الشيخ عبد الودود لأطمن عليه ، ثم إلى عبد الرحمن أفندى السلاوى ، ثم إلى عبد المنعم الخفير فقد سمعت اليوم أن حالته خطيرة .

— أطل الله عمرك يا ستى درية .. وتعودين بعد ذلك إلى البيت ؟

فترددت قليلا قبل أن تجيب :

— نعم .

ولما رأت فاطمة تردد درية وإلحاح كمال ، تدخلت فى الأمر حازمة .

— الله .. ماذا جرى يا ولد .. ؟ أهى محكمة .. ؟ أمش .. اذهب إلى حالك .. مالك أنت وما لخروجنا أو عودتنا .. ؟ جاءتك داهية .. أمش !!

وقال كمال وهو يبتسم ابتسامة العظيم الذى يتغاضى
عن تطاول الأطفال جهلوا قدره :

— حاضر .. حاضر يا ست فاطمة .. أنا ذاهب .. ولكن
فقط قولى لحضرة العمدة الا يأمن على الست درية بخفير واحد
.. اطلبى إليه ان يرسل معها خفيرين أو ثلاثة ، فقد ثبت
ان الخفير الواحد عندما يلتقى باللص يصبح عادة أضعف من
الشخص المسروق .. اليس كذلك يا عم فتحى ؟

وانتفض الخفير فتحى غاضبا ، والتفت إلى كمال الذى كان
قد ولى الركب ظهره عائدا إلى سبيله الأول .. قال فتحى :

— امش يلعن أبوك ابن كلب .. الم بيق إلا أنت يا ابن
الضائعة لتتهكم على أسيادك .. يا تائه يا ابن الكلب يا طبال ..
مصائب !!

بلغ كمال بيت النهرود ولم يلتفت إلى النسيان التى تحلق
بها القوم ، ولم يعنه ذلك البصيص الذى يحاول عاجزا أن
يغزو الظلام ، فما كان يهتم بالضياء أبدا . كان يعرف طريقه
بلا حاجة إلى هداية .. بلغ كمال مجلس الإخوان فلاقوه بترحيب
بختلط بكثير من التواضع ، فغو تشوقوا إلى صيحاته المنافقة
وإلى مجلسه منهم على الأرض حين هم على الأريكة يعد لهم
الجوزة ، فيخنونها دون أن يعانوا من إعدادها . تشوقوا إلى
هذا جميعه ، وأحبوا وعلى رأسهم الدفراوى ان يظهروا له أنهم
متواضعون يحنون على من كان مثله ، فرحبوا به . ولكنهم لم
ينسوا مكانهم منهم ومكانهم منه ، فكان ترحيبهم غارقا فى التواضع

الذى أحبوا أن يأخذوا به أنفسهم فى لحظتهم تلك . قال
الدفراوى :

— والله لك مكان يا أبا كمال .

وقال الزهار :

— يدى تحرقت من الفحم يا ابن الكلب . . أقعد . . أقعد
ورص .

وقعد كمال ، وراح جبايرة الليل يصلون من حديثهم ما قطعه
دخول كمال ، قال منصور :

— مصيبة والله العظيم يا أولاد . قرية فيها منصور الدفراوى
يعتدى على ثلاثة منها على ثلاث ليال متتالية ، ماذا حصل فى
الدنيا ؟

ويقول الكحلة :

— والمصيبة الأدهى أننا — ونحن أولاد الليل — لا نعرف من
الفاعل .

ويقول النمرود :

— اتظنه سيقفز من السماء ؟ لابد أننا نعرفه .

ويقول الكحلة :

— طبعا لابد أننا نعرفه ، وهل فى المديرية رجل لا نعرفه ؟

ويقول منصور :

— لا . . وخاصة أنه يبدو عليه أنه ثابت وذكى ، وولد يلعب
بالبيضة والحجر ، وفاهم الشغل .

ويقول الزهار :

— والله يا منصور لابد لنا أن نبحث عن هذا الرجل حتى نعرفه ، فإنه سيكون ذا نفع كبير لنا .
ويقول منصور :

— والله يا ابنى لو انضم إلينا لاستطعنا أن نقيم الناحية على رجل .

كانت الجوزة تدور بيد كمال وهو صامت لا ينطق بكلمة ، وما عوده القوم صموتا ، ولكن جبيعههم كان مشغولا بأنباء هذه الحوادث لا يلتفت أحد منهم من أمر كمال إلا إلى هذه الغابة التى يمدّها إليه فيشبهق منها بضعة أنفاس ، ثم يميل بها إلى الذى يليه .

قال الكحلة :

— أى والله يا بنى ، وخاصة إذا علمته أنت كيف يعمل سلاحه وكيف يضرب به ، وأنت الرجل ذو اليد القاعدة التى لا تخيب أبدا .

وبدا كمال يتكلم لأول مرة :

— اسمعوا .

فقال النمرود :

— سمعت الرعد يا كمال .. قل ماذا تريد ؟

فقال كمال :

— اسمعوا ولا تهذروا . فقد عشيت معكم السنين الطوال لم أر منكم إلا الهذر .. أنت يا منصور تقتل ، تقتل النفس التى حرم الله قتلها .. وتثال من أجل هذا ثمنا بخسا . لا بأس أن تقتل ولكن لابد أن تثال الثمن وتحسن تقديره .. أعرف

ماذا ستقول . . انت ترى ان زملايك ممن يستأجرون للقتل
يتقبضون نفس المبلغ الذى تقبضه انت ، ولكن من قال إن
القاتل ذا اليد القاعدة لا ينفع إلا فى الاستئجار للقتل ؟ إنك
تستطيع ان تشير الرعب فى الناحية فتنال ما تريد . وانت
يا نمرود ، ماذا ؟ الا تستطيع ان تعمل فى غير المخدرات ؟ الا تلف
بالبلاد وتعرف الصغقات ، ومن يملك كثيرا فيعطى من
عنده القليل . لماذا لا تستفيد من دورائك ومعلوماتك فيستفيد
منها الجميع ؟ وانت يا زهار منذ تركت العسكرية لا تحسن
شيئا ، إلا ان تميل بالطاقيّة وتفتح الزر الأعلى من الجلباب ،
فإن استأجرك أحدهم لحرس شيئا أو لتقف خلف أنفاس فيها
وإلا فإنك لا تسرق إلا توافه الأشياء . وجعلت أكثر اعتمادك
على استخدام النمرود لك فى تصريف بضائعه ، فعشت على
نفقته فرحا لأنك تجد ما تأكل ، وهو فرح لأنه أصبح ذا
مستخدمين ومساعدين . وانت ذكى لأنك لا تسرق الرجل
الذى استأجرك للحراسة وإن كنت تسرق جواره . وذكائك
يا مسكين لا يعود عليك بغير النفع الضئيل . وانت جرىء
لأنك تسرق فى وضح النهار وتعتمد على الضوء فى سرقاتك ،
وتقول لمن يتهمك : إنك لا يمكن ان تسرق فى الضوء . جراءة
وذكاء ولكن بلا فائدة ، ولو أنك استعملت جراتك وذكاءك فى
السراقات الكبرى لكنت ذا نفع كبير . وانت يا نور دخلت السجن
وخرجت ثم لم تنتفع من دخولك وخروجك ، وقد كنت فى الأخيرة
تعرف الكثيرين ، والعمدة منذ ذلك الحين يكن لك بعض الاحترام ،
ولكنك تكفى بالجلوس معنا معتبدا بعد ذلك على فدان وعشرة

قراريط لا تجنى منها غير يسير مال . ثم أنت معتمد بعد ذلك على الجلوس معنا ، تروى عن أحداث الليل التى تدعى أنك شهدت وما شهدت منها شيئا . خسارة .. كان يمكن أن تشهد لو أنك عملت ولم تتكلم ، وسعيت ولم تتشدد .

ثم سكت كمال فإذا القوم وقد غمرت أنواهم من الدهش ، وحملت عيونهم فى كمال يسمعون منه عجيبة لم ينتظروا أن يسمعوها يوما .. وترداد العجيبة غرابة أن تصدر عن كمال الذى لم يروا لسانه يتحرك فى فمه إلا بمدهم والمبالغة فى هذا المديح .

وتقطع منصور هذا الصمت فى دهشة لا تزايله :

— يا ابن الكلب .. ومن أين تعلمت هذا ؟

— تعلمته من الرجل الذى أخذ من الشيخ عبد الودود سبعمائة وخمسة وعشرين جنيها وثلاثة وخمسين قرشا ، ومن عبد الرحمن السلامى مائتى جنية وجنيهين وأربعة وسبعين قرشا ، ومن الخواجة استاورو خمسين جنيها وخمسة وخمسين قرشا .

فقال منصور فى دهشة أقرب إلى الفزع :

— ولد .. من أين عرفت حقيقة هذه المبالغ ؟

— ألم أقل لك إبنى كنت مع من أخذها .

— ومن هو ؟

— لا أقول لكم حتى أبلغكم رسالته كلها .

— وما هى ؟

— لا أقولها لكم حتى تقسموا على المصحف .

— نقسم .

— على ماذا ؟

— نقسم على ما يريد .

— إنه يريدكم أن تقسموا على أن تكونوا معه رجلا واحدا تأتھرون بأمره ، لا يرتفع صوت أمام صوته ، وقوله أمر ، وإشارته تنفيذ ، ماذا تقولون ؟

وتراجع الدفراوى ، ثم نظر إلى إخوانه متسائلا فرد إليه إخوانه نظرتھ بنظرات أكر حيرة ، وإن كانت تحمل أيضا رجاء إليه أن يقبل ما يعرض عليه . ولكن الدفراوى يسأل كمالا :

— وماذا نفيد من هذا ؟

— عزا لا تحلمون بمثله .. ومالا لا تبلغ إليه أوهاكم مهما يشتط بكم الوهم ، فأنت يا زھار ستزوج سعادىة أم الخير التى طالما تمنيت زواجها .. فلن يكون زواجها من صالح أو سعى أحمد أبى خليل حائلا بينك وبين الزواج منها ، ولن تحتاج بعد اليوم إلى أن تكون أجيرا أو عاملا بسيطا فى توزيع تجارة النمرود . وأنت يا دفرأوى لن تقتل بعد اليوم إلا فى سبيل الجماعة التى تعمل معها ، وستحميك من كل شيء . وأنت يا نمرود ستستع تجارتك فتصبح كبير تجار مصر كلها . وأنت يا نور لن تحتاج بعد اليوم لزيع فدائك الحقيقير ، سيجرى المال فى يدك فلا تدرى أين تنفقه .. ماذا تقولون ؟

وينظر الدفراوى ثانية إلى القوم ويسألهم :

— ماذا تقولون يا رجال ؟

وصمت الرجال بأفواههم وقالت عيونهم : « نقبل » . ولكن الزهار قال :

— الأمر إليك ، فأنت كبيرنا .

وعاد منصور يسأل كمالا :

— ومن هو صاحبك ؟

— لا أذكر اسمه حتى تقبلوا .

— أخشى أن يكون خائبا فيضيعنا .

ويقول كمال في ابتسامة هازئة :

— أمن أخذ هذه الأموال خائب ؟ . ماذا جمعت أنت في

حياتك كلها ؟؟ ما أظنك بلغت ما أخذه هو في ليلة ؟ !

— أجننت يا ولد ؟ لقد لعبت بالفلوس لعبا . إني أكسب

القرش من ...

ويقاطعه كمال ساخرا :

— من هم الأسد .. سمعت هذا الكلام كثيرا .. كم في

جيبك الآن .. ؟ كم في منزلك ؟

ويبهت منصور ويتلجلج ، ثم يقول لمن حوله محاولا أن

يغطي خزيه :

— ماذا تقولون يا رجال ؟

ويقول الكحلة :

— ما تقول أنت ؟

ويقول منصور :

— وماذا لو قبلنا ؟ فإن لم تعجبنا الحال قتلنا الرئيس .

ويقول كمال :

— على مهلك ، فإنيك ستقسم على المصحف أن تخلص له
كل الإخلاص .

— آه .. صحيح !

— ثم إنه ليس ساذجا ، وهو يتغدى بك قبل أن تتعشى
به ، وهو يعرف أسراركم جميعا لا يغيب عنه سر واحد منها ،
ورقة صغيرة إلى المأثور تعدم أنت ويحبس إخوان الصفا .

ويقول منصور إن حوله في تردد مذعور :

— هيه يا رجال ؟

ويقول النمرود :

— نقبل يا منصور .. وإذا لم يعجبنا الحال نفصها .

ويقول منصور كمن جمع أمره أخيرا :

— الأمر لله نقبل .. من صاحبك ؟

— القسم .

ويقوم النمرود إلى داخل المنزل فيحضر المصحف ، ويسأل
منصور :

— نقسم أن نطيع من يا كمال ؟

— تقسمون أن تطيعوا الذي أخذ أموال الشيخ عبد الودود
وعبد الرحمن السلامي والخواجة ، وأن تخلصوا له ولا تخرجوا
عليه مهما تكن الأحوال .

وانقسم الجعاعة على المصحف القسم الذي اراده لهم كمال ،
وما إن أتموه حتى التفت منصور إلى كمال يسأل في لهفة :

— من هو إذن ؟

ولكن كمالا لا يريح ثأره بل هو يقول :

— اسمعوا أولا ما ينوى أن يفعله لكم ، انه سيشتري لكل منكم حصانا وبندقية ومسدسا ، إلا انه يقول ...

— هيه .. ماذا يقول ؟

— يقول إن في هذه البلدة فقراء كثيرين ، وهو يريد أن يخرس إتاوة على الأغنياء ويعطى منها للفقراء .

— وماذا ستفعل نحن ؟

— تفيدون أنكم ستطبقون الأمواه حوالكم فلا تنطقوا بحكمكم ، وتقومون بأعمالكم في الظهر الأحمر فلا يشهد عليكم أحد . ثم إنكم لن تعطوا هؤلاء الفقراء إلا ربع أو خمس ما تنالون .

ويقول النمرود :

— وماذا سننال ؟

— ستنالون جنيتها من كل قنطار قطن يخرج من هذه البلدة ، وستنالون خمسين قرشا عن كل إردب حب تنتجه الأرض ، وستنالون خمسة جنيهات من كل غدان يباع ، تنالونها من البائع لأنه أصبح وفي يده مال ، وتنالونها من المشتري لأنه ملك ما يشتري به . وستنالون جنيتها في العام عن كل جاموسة أو بقرة لتحفظوها لصاحبها فلا تسرق منه ، وهذا جميعه غير ما ستحصلون عليه من الماشية من البسندان الأخرى فتبيعونها أو تردونها بالحلوان ، غير الاستفادة من الطرق الخالية التي لا يحرسها أحد . الا يكتفيكم من هذا جميعه أربعة أخماسه ، وتذهبون للفقراء خمس ، فيظل القوم حولكم صامتين لا يكشف احد من أمركم شيئا ؟

وقال منصور وقد جف حلقه ، وبلغت به الدهشة أقصاها :

— يا ابن الكالب .. من صاحبك .. ؟ من صاحبك .. ؟
 تشهد أنه رجل وابن رجل .. وأشهد أنه سيدى وتاج راسى ..
 من هو ؟

ورفع كمال الجلباب عن حزام الشيخ عبد الودود ، وفك
 أربطته فى تؤدة ثم رماه أمامهم نارغا فذهل القوم ، ولكن كمالا
 لم يبال ذهولهم بل هو يضع بده فى جيب صدره فيخرج
 حافظة الخواجة يلقيها أمامهم ثم يضع يده فى جيب جلبابه
 فيخرج حافظة عبد الرحمن فيلقيها أمامهم ، كل هذا فى بلاء
 شديد ، بينما راح الرجال الأربعة يقلبون الأشياء ويتعرفون
 عليها واحدة واحدة .. فهذه أوراق عبد الرحمن ، وهذه أوراق
 مكتوبة بغير اللغة العربية فهى للخواجة ، وفى ذهول مخدر
 لا يكاد يبين يتصايح أربعتهم صيحات تهيم بالارتفاع ، فيمسك
 بها الدهول والفرغ والحشيق .

— من ؟ .. انت ؟

ويقول كمال فى صوت هادىء حازم لم يسمعه القوم من
 قبل صادرا عن كمال ، ولم يسمعه القوم من بعد صادرا إلا عن
 كمال :

— نعم .. أنا .

- ١٠ -

لم يكن تردد درية حين سألها كمال إن كانت ستذهب إلى البيت بعد زيارتها وليد دهشة من السؤال ، وإنما كان وليد حذر في الإجابة ، فقد كانت تخبر في نفسها زيارة أخرى لم تطلع عليها غير فاطمة ، فقد كانت درية تنوى أن تزور بيت الشيخ حسن لترى وقع رفض أبيها .

وفوجيء فتحي بدرية وهي تطلب إليه أن يتقدم إلى بيت الشيخ حسن الذي كانت تعرفه كل المعرفة ، والذي طالما قصدت إليه في ستار من الليل ، تجلس إلى الست أم صلاح . وقد كانت درية تظهر الحب كل الحب للست أم صلاح ، وجعلت من هذا الحب المصطنع ستارا أسدلته على حبها الحقيقي ، فكانت ترحب بأم صلاح كلما أملت بهم في زيارة ، وكانت تظهر لأمها شوقها إلى أم صلاح كلما تأخرت هذه عن الزيارة .

وهكذا لم تر بأسا أن تزورها الليلة ، فما كان مفروضا أن تعرف بما كان بين الرجلين ، وما كان مفروضا أن تقطع أم صلاح فلا تزورها لمجرد أن أباه رفض ابنها . ولكنها مع كل هذا التبرير الذي اصطنعته لنفسها أوعزت لفاطمة أن تكتم خبر هذه الزيارة ، وأن تطلب إلى فتحي أيضا أن يكتمها .

كانت درية تعلم أن فخرى لم يبق في القرية بعدما كان من أبيها ، وأنه رحل إلى القاهرة في البكر من الصباح التالي ، فهو لم يسمع من أمر الجرائم التي تمت شيئا ، وهكذا كانت تعلم أنها في زيارتها تلك لن تلقاه ، ولكنها أرادت أن تقوم بهذه الزيارة عسى الأمل ألا ينقطع عند آل الشيخ حسن ، وعساهم يكررون الطلب إذا ما سئحت سائحة ليتكرر هذا الطلب .

— مساء الخير يا خالتي أم صلاح .

— أهلا .. مساء الخير يا حبيبتي ، خطوة عزيزة ، مرحبا بالحبيبة بنت الحبيب .

— أكثر الله خيرك يا خالتي أم صلاح ، كنت في البلدة علم أرض أن أمر بيتك دون أن أزورك .

— مرحبا يا حبيبتي ، شرفت أا . يا فاطمة .

— نعم يا ستي أم صلاح ؟

— عندك البن في الطاق ، اعلمي لنا فنجان شهوة الله يسترك ، أنت عارفة مكان الحاجات .

— من عيني يا ست أم صلاح .

وتقوم فاطمة إلى القهوة ، وتعود أم صلاح إلى ضيقتها :

— اظنك كنت تزورين المساكين الذي اعتدى عليهم قاطع الطريق .

— إي والله يا خالتي مساكين ، حالهم يبكي .

— لا أعلم والله أين كانت هذه المصائب مخبئة لنا يا بنتي ؟

— إي والله يا خالتي .

— والمصيبة أن المصائب كلها جاءت متلاحقة ، عمك الشيخ

حسن مريض .. منذ كان عند أبيك .. خرج مريضاً من عندكم
ولم يخرج من البيت حتى الآن .

— ألف سلامة له .

— والله زعل من أبيك جداً يا درية .

— ماله يا خالتي ؟ كفى الله الشر .

— والله يا بنتي لا أعرف .. حى — بعيد عنك — أم برد ...

لا أدري .. لا يكلم أحداً ولا يأكل شيئاً منذ جاء من عندكم ، وزاد
عليه المرض عندما سافر فخرى .

— كل شيء يهون يا خالتي إن شاء الله .

— عرف بالحوادث التي جرت ، وحاول أن يقوم فلم يستطع
القيام ، حتى لقد جاء الخواجة استاورو قبل أن يُسقط عليه
فلم يستطع أن يلقاه ، وقال إنه سيعود إلينا فى اليوم التالى ،
ولكن اللص هاجمه فى الطريق فلم يعد بعدها إلى البلد أبداً .

— وبعد يا خالتي ؟

— لا بعد ولا قبل .. هى مصيبة وحطت علينا ، والأمر
لله .. حتى الذين باعوا قطنهم للخواجة استاورو وقبضوا منه
عرايين قطنهم لم يأتهم أحد ليتسلم القطن ، وقد سمعوا أن
الخواجة لن يعود إلى بلدة السلام مرة أخرى ، وقد قصد
أحمد أبو خليل يطلب إليه أن يأتى ليتسلم قطنه فقال له : إنه
لن يعود إلى البلدة أبداً ، وأنه لا يريد العرايين التى دفعها .

— وبعد يا خالتي ؟

— القطن عندنا كالقتيل لا يجد من يشتريه ، وقد ذهب أخوك

صلاح اليوم إلى المديرية ليبحث عن يشتريه ، ولم يعد حتى الآن .

— إن شاء الله يجد المشتري يا خالتي .

— والله يا بنتى لا أظن . التجار خائفون من القرية ،
والتجارة يا بنتى أمان . النهاية .. كيف حالك أنت ؟

— الحمد لله يا خالتي .

وعادت فاطمة بالقهوة ، فراح ثلاثتهن يشربنها على حديث
فاطمة التى انتهزت فرصة الصمت من السيدتين ، فقالت :

— ألم ترى وطنية اليوم يا ستى أم صلاح ؟

— لا والله يا بنتى ، لها أيام لم تأت .

— هناك .. إنها اليوم فى أحسن حال — على الأقل فى
شكلها — إلا أنها مع كل ما هى فيه من نعيم غاضبة ساخطة
كأنها مات لها عزيز .

— خير ؟ ما الذى جد عليها ؟

— جد عليها ؟ جلاب إن رأيته قلت نستانا .. أحمر حلو ،
وعصبت رأسها بمنديل جديد ، والعجيب أن شعرها خاضع
للمندبل الجديد ولا أدري بماذا أخضعته ، لابد أنها اشترت له
زيتا غالبا .

فقالت أم صلاح :

— عجيبة .. ألا تكون هى فاطمة الطريق ونحن لا ندري
وضحك النسوة الثلاث ضحكا عاليا ، قطعه عليهم سعال
الشيخ حسن صادرا من مقعده بأعلى المنزل ينادى زوجته :

— يا فضيلة .

— نعم يا شيخ حسن .

— فنجان قهوة وحياة والدك .

— حالا يا سى الشيخ .

وقبل أن تستأذن فاطمة لعمل القهوة ، استأذنت درية لتصرف
تألت أم صلاح :

— ولم ؟ .. اتعدى قليلا .. سأعود إليك حالا .

— لا ، تأخر بنا الوقت وأخشى أن يدخل أبى فلا يجدنى ،
وهى فى هذه الأيام غاضب ضيق النفس لا يطيق الدنيا .. مسيت
بالخير يا خالتى .

— مسيت بالخير يا حبيبتى .. بلغى سلامى للست الحاجة ،
وإن شاء الله أجىء إليها عندما يغادر عمك الشيخ حسن الفرائش .
— سأبلغها يا خالتى .

وحيت فاطمة أم صلاح وانصرفت تتبع سيدتها إلى الخارج ،
حيث وجدت فتى واقفا ينتظر خروجها . وسار الركب عائدا
إلى بيت العمدة ، مارا بالنسيان والأنوار الخافتة والرجال
المتحلقين ، ولكن درية لم تحفل شيئا مما مرت به ، فقد هاجت
لها الزيارة ذكريات قديمة وجديدة لازمتها حتى أسلمتها إلى
أما المتسائلة عن التأخير ، فراحات درية تقص عليها ما لقيته
فى البيوت المنكوبة ، وراحت الأم تسمع فى عجب حزين .

وحين خلت درية بحجرتها وأعادت ما كان من أم صلاح
وترحيبها ، أدركت أن أم فخرى لم تقطع الأمل ، فهى تعرف
عن الست فضيلة نكاء متوقدا ، وهى تعرف أنها ما كانت

لترحب بها هذا الترحيب إلا لأنها تضرر فى دخيلة نفسها ن
تعود إلى المحاولة ، وقد تبكى هذا التفكير من درية حين
تذكرت وعد أم صلاح بزيارة أمها . وهى تدرى أن أم صلاح
ما كانت لتزور الأم إن كانت قد قطعت الأمل فى هذا الزواج
الذى تصبو إليه نفوس كثيرة . . وهى تدرى أن أم صلاح
ما طلبت إليها أن تبلغ والدتها بهذه الزيارة إلا لتشير لدرية
نفسها من طرف خفى أنها غير غاضبة ، وأنها ما زالت تأمل أن
يتم هذا الزواج ، فما كانت أم صلاح لتغيب أن زيارة درية إنما
تمت فى خفاء عن والديها .

وبهذه الآمال التى أحيتها درية فى نفسها استسلمت إلى
نوم منضور ، وأغمضت عينها على أحلام وردية لا شأن لها
ولا صلة بهذا السواد الحالك الذى يحيط بقرية السلام ، وبعمدة
قرية السلام .

- ١١ -

فرغ العمدة من صلاة العصر وخرج إلى مجلسه من شرفة الدوار ينتظر رفاقه ، وإن كان في هذه الأيام لا يطيق أن يرى أحدا ، فالمرکز يطلبه دائما وهو حائر لا يدري ماذا يفعل ، والمأمور لم تجد معه الهدايا والتزلف ، فإن الجرائم التي ارتكبت كانت أكبر من كل الهدايا مهما تعظم ، ومن أي تزلف مهما يبلغ . حتى لقد هدده المأمور بالوقف إن هو لم يقبض على الفاعل ، وطلب إليه أن يكون على صلة دائمة به ليبلغه كل إشاعة تروج ، فلمل لإشاعة منها امتدادا للحقيقة .

ولم يطل الانتظار المنفرد بالعمدة فقد قدم إليه نور الكحلة وما كان يتوقعه ، ولكنه فرح ببقائه فهو يعرف منه أنه خريج سجون ويعرف المجرمين ، وداخل العمدة أمل أن يجد عند نور ما يضيء له بصيصا مهما يكن خافتا يهديه في هذا الظلام الحالك ، وقال في نفسه إن لم يرشدني إلى الفاعل فلعله يرشدني إلى اسم أقدمه إلى المأمور فيلبيه عنى بعض الحين ، وهكذا وجد نور نفسه فجأة محل ترحيب لم يكن ينتظره .

— أهلا وبسهلا . . كيف حالك يا نور . أين أنت يا أخى ؟ . .
من زمن طويلا لم أرك .

— تحت أمرك يا حضرة العمدة .. تشوقت إليك والله فقلت
أزورك .

— والله جئت فى وقتك يا نور .

— تحت أمرك يا حضرة العمدة .

— يا أخى المصائب تتلاحق على البلد ولا أجد أحدا منكم
يساعدنى .. لا لم أكن أنتظر هذا منكم يا نور .

— نحن خدامك يا حضرة العمدة .. ماذا نفعل .. ؟ أنت
تعرف طبعاً أننا لا شأن لنا بهذه الأعمال .

— سبحان الله يا أخى ! وهل قلت إن لكم شأنًا ؟ إننى أعرف
خطواتكم جميعاً ، وطالما سكت عما يفعله منصور والنمرود والولد
الزهار أيضاً .. وكنت أقول ما داموا يتعدون عن البلدة فليفعلا
ما شاءوا .

— والله يا حضرة العمدة إن هذه الجرائم لم ندر بها إلا بعد
وقوعها .

— أعرف ، ولكنى كنت أنتظر منكم أن تبحثوا معى عن
الفاعل وتدلونى إليه . أيرضىكم أن يصبح عمدة بلدكم ضحكة فى
أفواه العبد ؟ !

— لا قدر الله يا حضرة العمدة .

— لقد قدر فعلاً ، وأنا من أسكت عنكم ، وأعرف أن النمرود
يبيع الحشيش ويساعده فى ذلك الزهار ولم أتكم ، بينما أستطيع
أن أبلغ عنهما ، وأعرف أن منصوراً قتل الفرماوى ، وأعرف كل
من قتلهم منصور ومع ذلك لم أتكم .

— إنهم يا حضرة العمدة يدعون لك دائماً ويعرفون أنك
تكرمهم ، وهم في انتظار الإشارة منك .

— ألم تسمعوا شيئاً عن الفاعل في هذه الجرائم ؟

— يا حضرة العمدة هذه المصيبة جاءت من الخارج ، رجال
لطيف بك غاضبون وأصبحوا يخشونه بعد مقتل الفرماوى ،
وهو يعرف تخوفهم هذا فأصبح لا يعطيهم ما كان يعطيهم ، فأظن
أن واحداً منهم أو بعضهم خرج إلى الطرقات المظلمة ليعوض ما أكله
عليه لطيف بك .

— يا أخى قل كلاماً غير هذا .. ومن أين يعرفون بخروج
الشيخ عبد الودود ، وبهجناء الخواجة استاورو إلى البلدة ،
وبسفر السلاوى وعودته ؟ .. لا يا عم ، شرع الله عند غيرك ..
إنه واحد من أهل السلام .

— والله يا حضرة العمدة أنت أدري ولكن هذا ما بلغنا ،
ورجال لطيف لا تخفى عليهم خافية ، وأولاد الحرام كثير .

— جائز .. ولكن لا أظن .. على أى حال يا نور لك عندى
جائزة كبيرة إن أنت عرفت الفاعل وأرشدت إليه .

— ربنا معنا يا حضرة العمدة .

وقبل أن يجيب العمدة صعد إلى الشرفة الشيخ رضوان
والحاج على ، ورحب العمدة بالرجلين ، وبدأ الحاج على الحديث :
— أسمعنا يا حضرة العمدة الإثاعة التى ملأت البلد
اليوم ؟

— هيه .

— يقولون إن رجال ...

- لطيف بك ؟
— نعم ، أبلغك هذا ؟
— والله نور هو الذى قال لى الآن .
— الإضاءة فى البلد كلها يا حضرة العمدة .
— كلام فارغ .. المجرم من البلد .. ولكن من هو ، لا أعرف
.. مجرم جديد لا نعرفه .
وقال الشيخ رضوان :
— سنريحك من حديث الجرائم قليلا بحديث فارغ ؟
— خير ؟
— لا والله إنه ليس خيرا ولكنه أهون من هذه الجرائم ..
إنه تسلية على كل حال .
— ماذا ؟
— سعدية أم الخير ..
— وصالح .. ثانية .
— يا حضرة العمدة العيشة لا تمكن بينهما .. لا تمكن أبدا .
— لماذا ؟
فقال الحاج على :
— غضبت منه ثانية .
— قل عائرة .
فضحك الجميع من نكتة العمدة ، وتابع الحاج على حديثه :
— وذهبت إلى دارها ، وأظنها ستجئ إليك الآن .
— عظيم .. لم يبق أمانا إلا سعدية وصالح .. نقيم لهما
عمودية ثانية خاصة بهما .. عظيم عظيم !!

وقبل أن يكمل العمدة سخطه يصعد صالح إلى الشرفة ..

— السلام عليكم يا حضرة العمدة .

ويجد العمدة بمصدر سخطه أمابه ، فيقول في سخرية مريرة

وفي ضيق بلغ مداه :

— عليكم السلام يا سيدى ورحمة الله وبركاته .. نعم !

— البنت سعيدة .

— مالها ؟

— تركتني وذهبت .

— في ستين داهية .. اسمع يا بنى .. اقترب هنا . خذ ..

ويضع العمدة يده في جيب صدره ويخرج حافظته ويخرج

منها جنيهين ، ويكمل حديثه :

— خذ يا صالح .. جنيهين ثمن الفراخ وأنت حر مع زوجتك .

تطلقها تطلقك ، تقيم معك تتركك .. المهم أن تتركني أنت يا بنى .

أرحمني يا أخى !!

— يا حضرة العمدة وهل طلبت منك ثمن الفراخ ؟

— من غير طلب يا بنى .. يا بنى .. أبعد عني .. اعمل لي

هذا المعروف يا بنى .

— وإلى من أذهب يا حضرة العمدة .. إنها ..

وقبل أن يكمل صالح حديثه تصعد سعيدة إلى الشرفة وترتقى

على قدمي العمدة .

— خلصني يا حضرة العمدة ، أنا خادمك ، ليس لي في

الدنيا غيرك يا حضرة العمدة .. أنت الذي رميتني وأمرتني أن

أصالحه .. أرجوك يا حضرة العمدة .. أبوس رجلك يا حضرة
العمدة .

ونتر العمدة قدميه ببتعدا بهما عن سعدية ، وهو يقول :

— عظيم .. تمت .. ماذا افعل الآن يا سى صالح !

فقال الحاج على كمن يحاول تهدئة الحال :

— قل لى يا صالح .. أترى يا ابنى العيشة بينكما ممكنة ؟

— وماذا افعل يا عم الحاجعلى ؟

— طلقها يا بنى .

ويقول الشيخ رضوان :

— نعم .. طلقها يا أخى .

وتترقق العبرات فى عيني صالح فتمسك بها رجولة ،
ويهم بأن يقول « أحبها » فترد رجولته الكلمة عن لسانه وتطلقه
بقول :

— تكلفت فى زواجها فوق ما أطيق ، ولا أملك ما أتزوج به
ثانية يا عم الحاجعلى .

ويقول الحاج على فى صوت يكاد يكون ساخرا :

— يا أخى اعتبرها تجارة بارت .

ويقول صالح فى صوت مخفق بالعبرات ، والمشاعر المختلفة
بين الحب والكراهة ، والإقبال والنفور ، والعزة والذلة ، ازدحمته
جميعها وأبت رجولته أن تبين عنها .

— ومن أين لى بمتأخر المداق يا عم الحاجعلى ؟

وتصبح سعدية :



— لا أريده .. أبرأتك من الحق والمستحق ، ولا أريد منك شيئاً .. فقط .. طلقنى .

— أهكذا يا سعدية .. وتهون العشرة ؟

— تهون .

— الأبر لله .. عندما يسترد الشيخ عبد الودود صحته أطلقك .

وينبرى الشيخ رضوان قائلاً :

— وما الحاجة إلى الشيخ عبد الودود . ؟ قل لها : طلقتك ثلاثاً طلاقاً بائناً لا رجعة فيه تصبح طالقاً ، وأوراق الشيخ عبد الودود تسجل الطلاق فيها بعد .

ويقول صالح فى تماسك كتماسك الزجاج المتحطم أو شك أن ينهار :

— أهذا ما تريد يا سعدية ؟

وتقول سعدية فى جهود مشيخة بوجهها عنه :

— نعم .

— فأنت طالق يا سعدية ثلاثاً ، طلاقاً بائناً لا رجعة فيه .

ويتنهد صالح تنهيدة عبيقة وهو ينصرف عن مجلس العبد قائلًا :

— حسبى الله ونعم الوكيل .. حسبى الله ونعم الوكيل .

وتنفجر سعدية باكياً بكاء عالى النشيج ، وتنصرف عن العبد لا يدرى القوم إن كانت قد انصرفت راضية أم آلمة . وبصمت القوم فترة من الزمان ما أحسوا أطالت أم قصرت فكأنما

شاهدوا مصرع شباب أمام أعينهم . ثم يقطع العمدة الصمت
ثالثا :

— لعلنا نرتاح بعد ذلك من سعدية وصالح .
وما إن يتم العمدة جملة حتى يبدو الشيخ حسن متوكئا
على ابنه صلاح وقد بدا اثر المرض على كل جارحة فيه ، وراح
يئن وهو يصعد درج السلم في اناة هزيلة ، وما إن يراه العمدة
حتى يقف فيقف الجميع ٥
— مرحبا .. مرحبا .. اهلا اخي .. والله العشرة لا تهون ..
لا تهون أبدا .

ويتقدم العمدة إلى السلم فيأخذ مكان صلاح ، ويجعل
من نفسه تكأة للشيخ حسن ، ويسير حتى يبلغ به مجلسا إلى
جواره فيقعده ويقعد إلى جانبه ويعود القوم إلى أماكنهم ، ويتابع
العمدة ترحيبه :

— اهلا .. اهلا .. ألف سلامة .. مالك .. ؟ ! والله
ما سمعت أنك مريض ..

ويكون الشيخ حسن قد استجمع بعض قواه التي أنهكها
المشي وصعود السلم .

— مريض منذ تركتك والله ، وما إن سمعت بالحوادث حتى
ذهت أريد أن أجىء إليك فهدنى المرض .. وماذا ستفعل .. ؟
— أهذا ما جاء بك ؟

— طبعا .. وهل كنت تنتظر غير هذا ؟ ! .. البلد في شدة
وأنت عمدها .. إن لم نقف معك جميعا فعلى البلد السلام .
— والله الشدائد حلوة .. والله أخ ..

— طبعا .. وهل يمنعنى عنك شيء وانت فى شدة ؟ ماذا
 ستفعل . ؟ ابنى صلاح أمالك مره أن يفعل ما تريد ما دام المرض
 يفعدنى أنا ، وقد أرسلت اليوم خطابا إلى فخرى ليجيء .. اجعل
 منهما خفراء ، اشتر لهما السلاح ، وعين لهما ما يفعلان ..
 أموالى تحت امرك .. صلاح باع القطن وسيأتى التاجر ليتسلمه
 غدا ، وقد دفع العربون مائة جنيه خذها ها هى ذى .. اشتر
 بها سلاحا للقرية ، وسأحضر لك بقية ثمن القطن بعد تسلمه
 .. أم ماذا ستفعل ؟

وترقرقت الدموع فى عيني العمدة وهو يرى صداقة عمره
 مائلة إياه لم يمنعها الخصام ولم تردها المغاضبة ، فأقبل صديق
 العمر أخو الصبا والشباب والكهولة يقدم أولاده وماله ، ضعف
 جسمه فقدم ما يفلو عن جسمه ، قدم امتداد حياته ، قدم آماله
 فى المستقبل وما بعد الحياة ، قدم ولديه وما لديه من مال بل
 وما يرتقبه من مال أيضا . ويقول العمدة وعبراته على وجنتيه
 مسألة لا يرددها ، فهى عبرات يشرفه أن تسيل .

— بارك الله فيك يا حسن .. لا شيء .. لن أفعل شيئا أكثر
 مما فعلت أنت ، وماذا يمكن أن أفعل أكثر مما فعلت أنت ؟

ووجم القوم يعجبون من هذا الذى يرون .. وتضائل كل
 منهم أمام نفسه .

وأمام هذه الشواهد العالية من الرجولة راح كل منهم يجد
 تعليلا فيه شيء من الذناءة لما يقوم به الشيخ حسن ، لعله أن
 يعيد لنفسه سابق كبيرها بعد أن أحست مقدار بعدها عن الرجولة
 الحق . فالحاج على يقول فى نفسه : « إنه تظاهر .. إنه يعلم

أن العدة لن يأخذ المائة جنيه ، ولن يجيش الجيوش ولن يشتري السلاح . » والشيخ رضوان يقول : « لابد أنه يريد أن يقتصر من العدة مثل المائة الجنية مائة أخرى ليعطيها لابنه الذى يتعلم فى العاصمة » . أما نور فقد كان الأمر عنده أخطر من هذا وأجل . . لقد رأى عصابته مهددة بهذا الشيخ الخرف الذى يريد أن يقضى عليها وهى فى مهدها . وكان الأمر عنده خطيرا أيضا لأنه علم أن قطن الشيخ حسن سيسلم غدا ، ولابد لهم أن يبدأوا عملهم به فيصيبوا بهذا هدفين برمية واحدة ، فهم أولا سيبدأون عملهم الأساسى فى فرض الإتاوات وسيبدأونه مع رجل من وجوه القرية ، وهم أيضا سيسكتون ذلك الصوت الذى يبدو عاليا . ويهم نور بالقيام ولكنه يرى أن يلبث قليلا حتى لا يفتن القوم إليه ويذكروا قيامه هذا عندما يتم ما يزمعه ، والظنين كثير الوسواس . يفتق الجمع من وجهتهم وقد أعد كل منهم جملة نفاق بلقى بها عند قدمى الشيخ حسن ، ولكن العدة يقول :

— أبقي عليك المائة جنيه الآن . . فإن احتجت إليها طلبتها .

ويقول الشيخ حسن :

— ماذا ؟ انظرنى جئت أعرض كلاما ؟

— لا والصدائة التى بيننا ، لا والله الذى لا إله إلا هو ، ولكن عندى فضلة مال وما اظننى أحتاج إلى شيء الآن ، فإن احتجت قلت .

— ولماذا تقوم بالأمر وحده ؟

— لا والله لن أقوم به وحدى ، ولكنى لا أستطيع شراء السلاح قبل أن استأذن المأمور وأطلب الترخيص ، حتى إذا

عزمت على الشراء طلبت منك ما تريد أن تدفع .. وعلى كل حال
أحفظ هذا المبلغ ولا تصرفه حتى نجمع رأينا على أمر ..
— وهو كذلك .. هذا المبلغ وأضعافه تحت أمرك .. السلام
عليكم .

ولكن رضوان يسارع قائلا :
— والله إنك رجل .. ونعم الرجل .. بارك الله لك في مالك
وأولادك يا شيخ .

وصيح الشيخ حسن غاضبا :
— لا .. لا يا شيخ رضوان .. الواجب لا يجوز المسيح
عليه ، وأنى رجل أمر لا يحتاج إلى تقرير .. كلنا عند الشدة
رجال يا رجل .

ويهم بالقيام ثانية فيسمع صوت نفير سيارة قادمة من قريب ،
فيمتنع وجه العمدة وهو يقول :
— المأمور .

ويمكث الشيخ حسن في مكانه لا يبارحه بعد أن يرى
ارتفاع العمدة ، وتفتتح أفواه الجالسين صموتا حتى تأتي
السيارة ، فيتبين العمدة أنها ليست سيارة المأمور . ولكن الخوف
لا يزياله إذ لعله أن يكون المأمور قادمة في سيارة أخرى ، وما
تأبث السيارة أن تقف ويخرج منها رجل في الحلقة الخامسة
من عمره جامد الوجه غليظ الجسم كثير الزينة والحلى .. كلهم
يعرفه وكلهم يخشاه وكلهم يداريه وكلهم يكرهه ، وينزل من
خلقه ثلاثة رجال مدججون بالسلاح . ويصيح العمدة وقد أصبح
عند باب السيارة :

— مرحبا لطيف بك .. أهلا وسهلا .. خطوة عزيزة .. شرفت
با سعادة البك .

ويتقدم القوم يصافحون لطينا ما عدا الشيخ حسن الذى
ظل مكانه ، حتى اقترب منه لطيف بك فوقف له فى اجهاد :
— أهلا سعادة البك .. لا تؤاخذنى فالمرض أقعدنى .
ويجيب لطيف بك فى محاولة بليدة للرقعة :
— سلامتك يا شيخ حسن .

ويعود القوم إلى مجالسهم ، ويأخذ لطيف بك مكان العمدة ،
وببدأ الحديث فور جلوسه :

— سمعت بما حدث عنكم فقلت لابد أن أزورك ، وإننى
مستعد لكل شيء .

— اطل الله عمرك يا سعادة البك ، والله لا ندرى من أين
جاءتنا هذه المصائب .

— غريبة .. أنا نفسى تعجبت جدا ، وتمت على الأولاد
فعرفت أنهم جميعا كانوا بعيدين عن أمكنة الحوادث ، وسمعت
اليوم أن فى البلد إشاعة عن رجالى فاستعلبت ثانية فتأكد
لدى أنهم لا شأن لهم بهذه الحوادث . والأولاد عندى كلهم
عيون على بعضهم البعض فلا يمكن أن يفعل أحد منهم شيئا
ولا أعرف به ، وأنا لا أرضى أن أصيب بلدة مجاورة لى بشر ،
خاصة وأنا أرجو منها الخير فى الانتخابات ، وإنى — وإن كنت
سقطت فى الانتخابات الماضية — إلا انى لا انسى أنكم بلدة
محاورة .

ويقول واحد من جاءوا معه :

— والله إن سعادة البك دائماً يأمراً إلا نتعرض لأحد من هذا
البلد بشر أبداً .

ويقول لطيف بك :

— اليس كذلك ؟ .. وعلى كل حال أنا ساظل وراء هذا المجرم
حتى أعرفه .

وتختلط أصوات القوم بالدعاء للبك ، ويميل الشيخ رضوان
على الحاج على هامساً فى صوت خفيض :

— هل اقتربت الانتخابات ؟

— أظن ذلك .

وجاءت القهوة فراح القوم يحتسونها بين دعاء للبك ،
وبين شكوى إليه من وقف الحلال بعد أن نسر التجار عن
القرية ، وبين أمل فى المستقبل بعد أن باع الشيخ حسن قطنه
إلى تاجر فى المحيرية ، والبك يستمع يعلق أحياناً أو يرتجى الجهل
بمأمل هذه الحوادث فيصمت ، ولم يكن البك لبقاً فى الحديث
ولا بذى علم فى غيره ، وإنما هو غنى فاجر جعل فى العصاة
التي أنشأها غناه من كل ما عداها ، فهو بإجرامها قسوى ،
وبأسلحة فتينها عالم . ألم يتيحوا له بأسلحتهم أن يتكلم
فيصمت الجميع ، وأن يشير فتسمع مشورته ، وأن يلجأ إليه
المتبلقون ، يسألونه النصح فينصح ؟ فنصحه أمر لا محيد
عنه ، فهو فى هذه الناحية عزيز وإن كان ذليلاً ، وهو فيها
هالك وإن كان أقلاً من جاهل .

ولم يثبت البك أقدامه فى أعماق الطين ، ولم ترسخ دعائمه
فى أغوار العفن عن قلة كفاية ولا عن لعب وهزل ، وإنما هو

قاتل سفاك ، ثبتت أقدامه بقتل من يجرؤ على معارضته ، ووطد دعائمه بالقضاء على كل من تطاول يوما فقال الله أكبر على الظالم والعاتى . والقتل طبيعة فى النفس الشريرة والحياء ستر رقيق ، ولا فرق بين الشريف والقاتل إلا ستر الحياء الرقيق هذا ، فإن سقط هذا الستر وظهرت الطبيعة العارية ، فليس ثمة حد لما تفعله النفس الخبيثة ، فالقتل أهون شرورها . لقد كان البك يتخذ من هذا القتل أداة افتخار واعتزاز ، بل إن البك لا يخجل أن يصنطع منطلقا للقتل ، فإن عجز عن اصطناعه اصطنعه المنافقون من حوله ، وقبله هو وردده حتى اقتنع به وحاول أن يقتنع به الآخرون ، ومن هؤلاء الآخرين من يقتنع لأنه لا يملك إلا أن يقتنع ، ومنهم من يصمت لأنه لا يملك أن يتكلم ، ومنهم من يخشاه البك — فإن لكل سيد سيدا — فلا يقتنع ولا يهتم البك إن اقتنع هذا الذى يعلوه منزلة أو لم يقتنع ، فإنه حتى هذا الرجل الذى يخشاه البك مهما يكن مكانه منه لا يستطيع أن يصده عن طريق سار فيه فاهمن . وما دام هذا السيد الذى يخشاه البك قد قبل أن تكون ثمة صلة بينه وبين هذا البك المجرم ، فإنه هو أيضا يصبح ولا قيمة لرايه ، وحسب البك منه أن يستعين به إن اقتضاه أمر أن يستعين به ، وإن يستعين هو بالبك إن اقتضاه أمر أن يستعين به . ومهما يكن هذا الأمر هينا ، ومهما يكن شريفا ، إلا أنه — وقد استعان به — فإنه يصبح أمامه أقل من أن يملى عليه راي . والبك لا يعدم فضيلة ، فهو يخلص أشد الإخلاص لأصدقائه على الأبنالوا منه ، وإلا انقلب عليهم .

هكذا كان البك بعيدا. كل البعد عن الشرفاء لأنهم هم لا يحبون أن يقتربوا منه ، وقريبا كل القرب من أولئك الكبار الذين يوسعون له فى مجلسهم ويسمحون له أن يقول على مسمع منهم فيغوص أمامهم فى الوحل فيحترقوه ولا ينتشلوه ، فهم إنما يصطنعونه لأنفسهم ، ويكتفون بإلقاء دعاية مازحة تعليقا على حادث قتل قام به ويروى أمره عليهم . فإن أراد أن يسوق إليهم منطقته هذا الذى اصطنعه أو الذى اصطنع له ، رغضوا الموافقة عليه بدعاية أخرى ، واقتنعوا أنفسهم أنهم قاموا بواجبهم ، وما أكثر ما تخادع نفسها النفس .

وقد يجد البك من يرده عن غيه ردا عنيفا ولكنه لا يرتد ، فقد شاء الله الروع بعبداده أن يوجد بالناحية المجاورة أنور بك صدقى . وهو رجل يحب الحق فلا يعدوه ، وقد ناصب لطيفا العداء وحاول أن يرده باللفظ فلم يرتد ، فسراح يحاربه بكل سلاح إلا سلاح الجريمة ، وكل سلاح بطيء أمام الجريمة ، والسلاح المشهور أقل مضاء من السلاح المتستر بالليل الأسود من الضمير المريض . وقد كانت أسلحة لطيف جميعها مستورة ، وكانت أسلحة أنور جميعها مشهورة ، فيرتكب لطيف الجريمة بالليل ويبلغ أنور النيابة فى الصباح .

وهكذا كان يستطيع لطيف دائما أن يأتى جزائمه ، ولم يستطع أنور أبدا أن يثبت عليه جريمة وإن استطاع أن يجعل اسمه فى كل مكان شريف سبة وعارا . وقد استطاع أنور أن ينجح فى الانتخابات ، ولقد نال من قرية السلام نفسها أغلب أصواتها ، ولم يستطع لطيف أن يقتل من خرج عليه فى الانتخابات

لأنهم كانوا أكثر من أن يقتلهم جميعا ، ولأنه كان يأمل منهم خيرا فى الانتخابات التالية . ولكن هذا لم يمنعه أن يصيب الأعيان الذين ناصبوه العداء فى إصرار عنيف ، والذين دعوا ضد فى غير بلادهم فهو يسرق بهائمهم ويحرق زراعاتهم ويهددهم بالقتل إن أمعنوا .

ولم يستطع أنور أن يفعل شيئا لإزائه إلا أن يعوض هؤلاء بهاله عما أصابهم فى سبيله ، وكان يبلغ الأمر إلى السلطات وهو واثق أن لا سبيل لهذه السلطات على المجرم الأصيل .

وهكذا لم يستطع أنور إلا أن يحد من إجرام لطيف دون أن يصل إلى وقفه ، ولم يستطع لطيف أن يقتل أنور فقد كان يعلم أن عائلته الكبيرة لن تسكت عنه إن هو فعل .

كان منطق لطيف أن الرجل الحقيقى هو الرجل الذى ينفع ويضر ، وأنه لا خير فى رجل ينفع فقط ولا يضر أبدا كأنور ، وبهذه الفلسفة البسيطة سمح البك لنفسه أن يشارك الله فى خلقه ، ويقتل ويسمى ذلك ضرا ، ويجزى ويسمى ذلك نفعاً .

والبك وإن يكن شحيحا إنه كريم لصاحبه الكبار يبذل لهم الهدايا ، وكريم أيضا لصاحبه المجرمين بوسع لهم أسباب العيش ، إلا أنهم إذا طمحو إلى أكثر مما يعطيهم هيا لهم مصيرا كذلك الذى هياه لكبيرهم الفرواوى على يد منصور الفرواوى .

— ولا يجنل البك مجرما فى الناحية أو صديقا لآجرم أو متعلقا بالإجرام أو هاويا له . فهو ملجؤهم يختار لهم المحامين ويمدهم

بالقرض — دون العطاء — ، ويصطفى منهم لنفسه الأشداء
الخلاط .

هكذا كان لطيف بك لا يجهل أحد من الجالسين إليه في دوار
العمدة شيئا من أمره .

ولقد اتفق جميعهم على احتقاره في دخيلة أنفسهم واختلفوا
في أسباب طي هذا الاحتقار لا يجاوز دخيلة النفس ، فمنهم
من ينافقه عن طبيعة للنفاق ، ومنهم من لا يخاشنه لأنه لا فائدة
ترجى من مخاشنته ، ومنهم من لا يعنيه أن يصانعه أو يخاشنه
فهو يتخذ منه موقفا لا مباليا ، فإن حياه أجاب ، وإن أقبل قام ،
وإن غاب غاب فلا سؤال ولا ود .

جميعهم كان يحتقره ، شأنه في ذلك شأن عارفيه جميعا .
جهبعهم إلا نورا فهو وحده الذي يكن له الاحترام ويبدية ،
وماله لا يفعل ؟ ولطيف بك في نظره المثل الأعلى الذي يحتذى ،
والرجل الذي يحمى الرجال ، والإله الذي يجزى فجزاؤه بعض
مال ، أو يعاقبه شعقابه الموت .

كان القوم لا يزالون يشربون القهوة حين أقبل الحاج إبراهيم
فالتقى سلاما دون أن يصافح أحدا ، واتخذ لنفسه كرسيًا قصيا
عن مجلس البك وقريبا من سلم الشرفة ، وعاد البك يفتح موضوع
السرقات مرة أخرى مع الحاج إبراهيم :

— ما رأيك يا حاج إبراهيم في هذه الحوادث ؟

فقال الحاج إبراهيم في بعض حدة :

— رأيي يا سعادة البك أنه لو كانت الناحية نظيفة من

المجرمين ، ولو كان المجرم يلتقى عقابه الذى وضعه له القانون
لا يسره عن العدالة أحد ، لما وقعت هذه الحوادث .

واستقبل البك هذه الملاحظة العنيفة فى صمت ولم يعلق
عليها ، فهو يعلم أن الحاج إبراهيم لا ينطق بغير الحق ، وهو
بمضى عما يقول لأنه يحتاج إلى عائته الكبيرة فى الانتخابات ،
ولأنه يعلم أيضا أن الحاج إبراهيم يقول له الحق فى وجهه ثم
لا يصنع بعدها شيئا ، اللهم إلا الامتناع عن انتخابه .

ولم يكن ذلك فى نظر البك سببا كافيا للقتل ، فقد كان
لا يقتل إلا خارجا عنيفا فى خروجه ، أو خارجا عليه من ذوى
الإجرام .

ونظر العمدة إلى الحاج إبراهيم نظرة فيها بعض لوم ، ولكنه
لا يبالي ذلك منه بل يقول له :

— طلقت سعدية من صالح ؟

ويقول العمدة متعجبا :

— لا إله إلا الله يا حاج إبراهيم .. أهذا وقته ؟

— الحق يقال فى كل الأوقات يا شيخ زيدان .. طلقت

سعدية من صالح لأنه فقير .. كره الله هذا والمؤمنون .. كره الله
هذا والمؤمنون ؟ !

— لا إله إلا الله يا حاج إبراهيم ..

— لا إله إلا الله دائما وفى كل وقت يا شيخ زيدان ، هو

عون المظلوم على الظالم .. سلام عليكم .

ويقوم الحاج إبراهيم وينصرف وقد أخذت القوم رجفة من
ذكر الله ، وكانوا قد انتهوا من شرب القهوة فقام البك لينصرف ،

وركب السيارة يحف به على الجانبين رجلان ، ويجلس الرجل الثالث فى مقدمة السيارة ، وقبل أن تتحرك السيارة ينادى الرجل الجالس فى المقدمة نورا :

— يا نور .

— نعم يا أبا سريع .

— أريدك فى كلمة وحياة والدك .

ويسرع نور إلى أبى سريع ، ولكن أبا سريع لا يتكلم فيدرك نور أنه إنما يريد به فى سر ، فيدخل رأسه فى السيارة ويضع أذنه على فم أبى سريع ، ويهمس هذا فى أذنه :

— البك يريد الدفراوى أن يأتى إليه غدا .

ويجب نور فى سرعة لا يسبقها ريث تفكير .

— حاضر .

ويخرج نور رأسه وتشرق على وجهه ابتسامة ، فقد بدا أمام الجميع موضع سر من البك أو من أحد رجال البك ، وتشرق على وجهه ابتسامة أخرى لأنه يعرف لماذا يريد البك الدفراوى . فقد كان يحزن البك أن تتم فى المديرية كلها عملية كهذه العمليات التى تمت دون أن يعلم بها من قبل ، أو يعلم على الأقل فيما بعد من الذى ارتكبها . ولم يكن هذا الحب الجارف للعلم نتيجة حب استطلاع بل كان نتيجة حب البك للحياة ، فإن أى مجرم لا يعرفه قد يقتله مأجورا على ذلك أو متفصلا ، ولم يكن البك يحب أن يقتل .

نعم كان نور مشرقا حين بارحهم البك ، فقد كان يظن أن الواقفين يجلون فيه أنه موضع سر البك المجرم . ولو كشف

عن نفوسهم لأذهله الذى يجده بها من كره له وللبك جميعا ،
ولأذهله أيضا احتقارهم إياه ، واحتقارهم المضاعف أضعاها
كثيرة — بقدر فرق درجة الإجمام بينهما — للبك نفسه ، ولم يكن
نور يظن أن لطيفا يمكن أن يكون محل احتقار من أحد .

كان الموعد قد حلّ لانتهااء الجلسة فقد جاء موعد العشاء ،
استأذنوا من العمدة جميعا وانصرفوا ، وانفتل العمدة إلى
منزله .



ذهب الحاج على والشيخ رضوان صامتين إلى دكان الحاج
على فوجدا أحمد أبا خليل ينتظرهما ، فابتدرهما قائلا :

— مرحبا .. مرحبا .. يدك أقبليها يا عم الشيخ رضوان .

فيقبلها ويلتفت إلى الحاج على :

— يدك أقبليها يا عم الحاجعلى ؟

فيقبلها أيضا ، ولكن الشيخين غير راضيين فقد ارتجف
قلباها من حديث الحاج إبراهيم . ولم يجد الحاج على مفرا
لنفسه من ضميره إلا أن يقول لأحمد :

— يا ابنى ألم تجد وسيلة لترضى بها الحاج إبراهيم ؟

ويريد وجه الفتى وتعلوه الحسرة .

— ماذا أفعل له .. ؟ ماذا أفعل ؟ قصدت إليه حين علمت
بطلاق سعدية أرجوه أن يشتري الفدان الذى كان يريد شراءه ،
وكنت قد اتفقت مع محبوب على أن يشتري منه عشرين قيراطا ؟

وقلت فى نفسى : الفرق بين الثمين يكون مهر سعيدية . ولكن
الحاج إبراهيم رفض أن يشتري الفدان وطرمنى .

فقال الشيخ رضوان فى ضيق :

— أرخص له الثمن .

— أرخصته حتى بلغ ستمائة جنيه فاقسم لا يشتريه ، بل
أقسم . . بل أقسم ألا يقبله هبة ففكرته .

فقال الحاج على :

— لا حول ولا قوة إلا بالله .

وقال الشيخ رضوان :

— لا حول ولا قوة إلا بالله .



وقصد الشيخ حسن مع ابنه صلاح إلى منزله ودلفا إليه
فوجدوا فضيلة تصلى العشاء ، ووجدوا بجانبها الموقد والعيش
وما تحتاج إليه القهوة ، فتركها تنهى صلاتها ، ودخلا مخزن
القطن فوجدوا الأنفار يعبئون القطن على ضوء المصباح ، فحياهم
الشيخ حسن ، وخلع صلاح جلبابه واستعد لياخذ مكانه مع
الأنفار وهو يقول : « كان الله فى العون يا رجال » . وما لبث
أن غاص فى كيس وعلقه إلى سقف المخزن وهو يقول : « على
بالد يا رجال . . هاتوا القطن لأريكم كيف يكون الكبس » .

فتركهم الشيخ حسن وخرج إلى زوجه فوجدتها قد انتهت
من صلاتها ، فحيها ثم طلب إليها أن تحمل الموقد والعشاء

وتلحق به إلى المقعد ريثما يصل إلى هو فرض العشاء . فأواماً
له أنها ستعمل . فقد كانت لا تزال تسبح بعد الصلاة .



أما نور فقد انطلق إلى بيت النمرود يحمل في ليلته أنباء
ضخماً ، فقد كان سفيرهم إلى بيت العدة ليتسمع الأخبار
فتسمع وتزود منها ما لا تطيق جعبته أن تحمل ، وراح يقطع
طريقه لا يدري بأي أخباره يبدأ وبأيها ينتهي . وراح يصور
في ذهنه كيف سيطلق أخباره من عقاليها الذي طال عليه الأمد
من طول الطريق وانفراده فيه .

وبلغ نور منزل النمرود ودخله فوجد الجمع كما توقع أن
يجدهم ، الزهار على الأرض يعد الجوزة ويسديرها ، وكمال
في الصدر على الأريكة يحف به التبجيل والتوقير ، ويحف به
أيضاً النمرود والدغراوى .

- ١٢ -

فرغ الشيخ حسن من تناول عشائه وقهوته وراح بكل
سهره مع زوجته ، وراحت هى تعلق على حديثه بما يرضيه فما
تعودت أن تلقى إلى سمعه إلا ما يرضيه ، وأحس الشيخ بعض
برودة فى الحجرة فقال لزوجته :

— بالله يا فضيلة أفلى الشباك ، فإنى أحس بعض برودة .

وقامت فضيلة إلى الشباك فأقفلته ، وراحا يتحدثان مرة
أخرى ، ولم يطل بهما الحديث إذ ما لبث حجر أن اقتحم عليهما
الغرفة مخطما الزجاج فى سبيله إليهما ، واستقر الحجر أمام
الشيخ حسن . فسارعت فضيلة إلى الشباك وهى تسبب الأطفال
الاشقياء الذين لم ينالوا من آباءهم الكلاب حظ تربية ، وفتحت
فضيلة الشباك وراحت تدور بعينها فى الظلام فلم تر أحدا ،
ولكنها أطالت الوقفة والسياب منتظرة أن يهرها الشيخ حسن
بالعودة إلى مكانها ، ولكن الشيخ حسن كان مشغولا بأمر
جليل .

أمسك الشيخ حسن بالحجر الذى استقر أمامه وأراد أن
يعطيه إلى زوجه المشغولة بالسباب لتلقيه إلى الشارع . ولكن

يده لامست شيئاً غريباً معلقاً بالحجر تبينه فإذا هو ورقة مطوية ،
نشرها فإذا هي خطاب موجه إليه :

« عرفنا أن قملتك سيسلم غداً إلى التاجر ، ولكننا نوبنا
أن نأخذ من الأغنياء لنعطى الفقراء واليتامى والمساكين وأبناء
السبيل ، فقد قال الله تعالى : (وفى أموالهم حق معلوم .
للسائل والمحروم .) . ولذلك فإننا سنأخذ منك عشرين جنيهاً
عن كل منظار جنيهاً واحداً ، وسنصرفها فى أوجه البر ، فإن
قبلت فأرسل المبلغ مع ابنك صلاح إلى طريق محطة السكة
الحديد فيظل سائراً فيه ، وسيجد أحداً ليرشده إلى الشخص
الذى نجلس فيه الآن ، وأعلم أنك مراقب من الآن حتى يحضر
صلاح بالفلوس ، فإن حاول أن يأتى بأحد معه فسيقتل هو
ومن معه ، وإياك وعدم الدفع الآنك ستحزن حزناً شديداً ، وقد
أنذرنك وأنت من الآن المسئول وحدك عما سيحدث لك » .
(جماعة الخير)

قرأ الشيخ حسن الورقة ثم أعاد قراءتها ثم أعاد ، وفضيلة
لا تزال بالشباك تشتم من قذف الحجر . فوضع الشيخ حسن
الورقة فى جيبه وتوكل على الأثاث حتى بلغ الشباك ، وراح
ينظر مع فضيلة التى التفتت إليه قائلة :
— لا أحد ، لا أدري أين ذهب ابن الكلب .

فلم يجب الشيخ حسن وإنما راح يتوكل مرة أخرى على
الأثاث حتى بلغ باب الحجرة ، وفتحته ونادى « يا صلاح » .
ولكن صوته لم يبلغ ابنه فسأله زوجته :
— تريد فى شيء يا شيخ حسن ؟

فقال لها :

— نعم ، ناده .

فنادت فضيلة من عند السلم بصوت جهير :

— يا صلاح .

وسرعان ما جاء الجواب :

— نعم يا أم .

فقال :

— كلم أباك .

وجاء صلال إلى حيث يبلغ أذنه حديث أبيه :

— نعم يا أبى ؟

فقال الشيخ حسن :

— أخرج إلى الشارع ودر حول المنزل وانظر إن كان أحد

واقفا ، وأسرع .

وراح صلاح يصدع بالأمر ذاهلا فهو لم يسمع الزجاج وهو

يتحطم ، فالأمر غريب بالنسبة إليه ، ولكنه لا يسعه إلا أن

يطيع أباه . وسرعان ما عاد صلاح يقول :

— لا أحد يا أبى .

فقال الشيخ حسن :

— أحكم رتاج الباب وعد إلى عملك .

فقال صلاح :

— أمرك يا أبى .

وعاد الشيخ حسن يقول :

— أما زال أمالكم عمل كثير ؟ .

فقال صلاح :

— لا يا أبى ، فقد أوشكنا أن ننتهى .

فقال الشيخ حسن :

— فإذا انتهيتم وخرج الأنفار فأحكم الرتاج بعدهم .

فقال صلاح وهو لا يزال ذاهلا :

— أهرک يا أبى .

وأنصرف صلاح عاجبا من أواخر أبيه هذه المتلاحقة ، فهو قد تعود أن يحكم رتاج الباب ولكنه لم يتعود أن يطلب إليه أبوه ذلك ، كما لم يتعود أن يطلب إليه أبوه أن يدور حول المنزل ليرى إن كان أحد واقفا ، ولكنه أقنع نفسه أخيرا بأن أباه يحتاط فى هذه الأيام التى شاعت فيها الحوادث ، وإن كان هذا الرأى لم يقنعه كل الإقناع فهو يعرف أباه ثبता لا يخف فؤاده ، ولكنه لم يجد غير هذا الرأى فقبلته نفسه فى مضض وحيرة .

وعاد الشيخ حسن إلى غرفته فوجد عيني زوجته حائرتين فى وجهه ، تكاد تساله العينان قبل اللسان :

— خير يا شيخ حبن ؟ أكل هذا من أجل حجر القاه طفل ؟

وغغم الشيخ حسن متفكرا :

— لعب عيال .

فقال الزوجة وهى حائرة لا تزال :

— طبعا يا شيخ حسن لعب عيال ، فلماذا هذا جميعه ؟

وغغم الشيخ حسن مرة أخرى :

— لا شيء ، مجرد احتياط لا أكثر . هلم إلى النوم

يا فضيلة .

وقصد الشيخ حسن إلى السرير الأسود القائم على أعمدته
الأربعة في ركن الحجرة ، وخلع عمامته وأعطاهها فضيلة التي
وضعتها على المنضدة ، ثم خلع الشيخ جواربه في بطنه داهل ،
والتقى بنفسه إلى السرير غير حائر ، فهو لم يفكر لحظة في أن
يجيب جماعة الخير إلى مطلبهم فما تعود التهديد ، وما كان ليقبل
أن يكون مريسة سهلة . وقد رأى أنه إن قبل فستمادى جماعة
الخير في فرض إتاوتها فيعم الخراب القرية . ولكنه مع ذلك لم
يعدم هاجسا في نفسه أن هذه الجماعة قد تصيبه بسوء وإن كان
لا يدري أي سوء يمكن أن تصيبه به ، ولعله يرد هذا الهاجس
عن نفسه بأنهم لن يجرؤوا . فلئن ينتهز لص من الليل غفلة
ويهاجم بعض نفر في الطريق ، فما يعني هذا أن يجترأ هذا
اللعن فيفرض الإتاوة على وجوه القرية وأعيانها . وهكذا
راح يفكر الشيخ حسن في فراشه بينما راحت زوجته في صوت
سبات بعيد . وما لبث الشيخ حسن أن راح يتمتم في صوت
ثابت : (بسم الله الرحمن الرحيم ، قل لن يصيبنا إلا ما كتب
الله لنا ، هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، قل هل
تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ، ونحن نتربص بكم أن
يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ، فتربصوا ، إنا معكم
متربصون) . صدق الله العظيم .

وراح الشيخ يردد هاتين الآيتين حتى أسلمته إلى نوم هادئ
عميق .



جلست جماعة الخير فى النخس الذى أقاموه فى الصحراء
 قريبا من الطريق الواقعة بين البلدة ومحطة السكة الحديد ،
 وقد تعلق جميعهم حول كمال يسذلون له الإعجاب بخطته ،
 وهل تخيلوا يوما أنهم سيقومون لكل عملية خصا يتسلمون فيه
 ما قد فرضوه على ضحيتهم ، ثم يهدمونه ويزيلون أثره ليقيموا
 مثله فى مكان آخر ، فيضيع أثرهم فى عرض الصحراء ولا يعرف
 لجماعتهم مستقر ؟ وهل فكر أحدهم إلا كمالا فى أن يترك الحجرة
 التى كانوا يجلسون بها فى بيت النمرود مضاءة مقفلة بالمفتاح ،
 حتى يظن العابرون بالمنزل والجيران أن أهل الحجرة جالسون
 بها لم يغادروها ؟ لا ، إن أحدا لم يفكر بهذه العبقرية إلا كمال .

وقد اتخذ كمال من مغارته المركز الرئيسى للجماعة .. لقد
 كانت تلك المغارة مهبط وحيه ، فيها انقطع عن الناس ليفرغ
 إلى الشيطان فيضع تلك الخطة التى ينفذها اليوم . وهكذا
 وجد أفراد الجماعة الجديدة رئاسة حازمة تأتلفهم وتضع لهم
 الخطط قوية قوية ، ووجد كل منهم لنفسه بندقية على أحدث
 طراز ومسدسا بساقية ، كما هيا كمال لكل منهم حصانا جعل
 مستقره فى مغارة الوحي .

وهكذا استقام الأمر لكمال ، فهو يغدق عليهم من كرمه ،
 وهو يهددهم بأسرارهم ، وهو يروعههم بخططه المحكمة ، وهو
 من قبل قد جعلهم يقسمون له يمين الولاء على المصحف . وبين
 الإكرام والتهديد ، والوعد والوعيد ، تلين نفوس وتقبل ما لم
 تكن لتقبله ، فقبل العتاة الأربعة أن يكونوا أتباعا لكمال بعد
 أن كانوا يأنفون أن يكون كمال تابعهم .

قال الدفراوى :
— ما للزهار تأخر ؟
فقال نور :
— إنه ينتظر صلاحا على الطريق .
وقال النمرود :
— ولكن الانتظار طال .. أخشى أن يكون الزهار قد وقع
فى مكروه .
فأجاب الدفراوى :
— أى مكروه يمكن أن يقع فيه ؟ لقد أعد له أبو كمال كل
خطوة يخطوها حتى يصل بالمال إلى هنا .
وراح نور يقول :
— إن عملية الزهار عملية عيال .
وعندئذ فقط تكلم رأس الحكمة كمال :
— أحب أيها الإخوان أن نتعود ألا نحقر أى عمل يقوم
به فرد منا ، فلكل أعمالنا مكملة لبعضها البعض .. لولا عملية
الزهار — وهى عملية كبيرة — لما أتبع لنا أن نبدأ أعمالنا كلها .
فقال النمرود :
— نعم يا أبا كمال أنت محق ، وعملية الزهار عملية مهمة
فعلا يا نور ، إنه سيرمى الحجر ثم يسارع بالاختفاء ، ثم هو
سيقف لينتظر صلاحا ، وأنتم تعرفون أن الشيخ حسن صلب
الرأى لا يقبل ما يفرض عليه بسهولة ، فقد يرسل مع صلاح
من يقبض علينا .
فقال نور :



— نعم ، ولكن الم نتفق حينئذ أن يطلق الزهار عليهم بندقية ؟

فقال النمrod :

— الزهار فرد واحد ، ومهما يكن ماهرا . فى التصويب فإنه إن جاعته جماعة لا بد أن تتغلب عليه . . فهى عملية ليست يسيرة كما تتصور .

فقال الدفراوى :

— الشهادة لله أيها الإخوان العملية التى تقوم بها كبيرة ، وما كان يصلح لها إلا نحن .

وهكذا جرى الحديث بين الجماعة ، وقد اتخذ كمال منه موقفا متعاليا فلا يشارك فيه بغير ملحوظة يبذلها ليضع القواعد ويؤسس العمد .

لم يطل بالقوم هذا الحديث إذ سرعان ما أقبل إليهم الزهار ، فما إن رآوه حتى وضع كل منهم لثاما حول وجهه فلا يبين ، ولكنهم سرعان ما أدركوا سخافة ما فعلوا حين تبينوا أن الزهار لا يضع اللثام ، فصاح كمال :

— ويحك أين لثامك ؟

فقال الزهار :

— لم اللثام يا أبا كمال ؟ إن أحدا لم يأت بعد ولكن . .

فقال كمال فى عنف :

— فماذا جئت تفعل هنا ؟ . ألا يجوز أن يأتى الآن سى صلاح . .

صلاح . . فلا يجدرك ويعود ؟

ولكن الزهار قال :

— تريث يا أبا كمال .. هل قلت لوطنية أن تأتي إليك
بالعشاء ؟

فقال كمال :

— نعم .. أمن أجل هذا تركت مكانك ؟ .. أين هي ؟

— أمرتها أن تنتظر حتى أعود إليها .. بنت الكلب هزئت
منى ، أردت أن أضع اللثام حين رأيته قادمة فإذا هي تقول :
« مبروك البرقع يا زهار » . فاردت أن ..

فقال كمال مبتسما :

— أذهب يا زهار إلى مكانك وأرسل وطنية ، ولا تضع
الوقت .

وخرج الزهار ، والتفت الدفراوى إلى كمال يسأله فى تمحل
محاولا أن يفتح لنفسه طريقا للزواج مع الزعيم :

— خير يا أبا كمال ، هل نحن اليوم مدمعون إلى العشاء
عندك ؟

فقال كمال فى جد رقيق :

— العشاء على حسابى فى كل يوم نقوم فيه بعملية .

— يا زين الرجال يا أبا كمال .

واقبلت وطنية بعد حين بالعشاء ، وما إن دخلت حتى قالت :

— مساء الخير يا جماعة .

فيأذا كمال يقول لها فى حزم :

— اخرجى يا بنت ، جماعة فى عينك قليلة الأدب .

— لماذا يا بى كمال .. ؟ أكل هذا لاني قلت يا جماعة ؟

الستم جماعة الخير أم ظنننى — لا قدر الله — اقصد الجماعة
التي يقصدها الفلاحون حين يتكلمون عن نسايتهم ؟
وأدرك كمال أن الإطالة فى الحديث قد تؤدي به إلى موقف
لا ترضاه الزعامة ، فاقصر عن النقاش وسأل وطنية :
— ماذا أحضرت لنا ؟

— أوامر سعادتك يا كمال بك .. فراخ وحبام ولحم وأرز ،
وسعادتك قلت إنك لا تريد خضارا ، لأن نفسك ملته أيام
الفقر .

فقال كمال مسارعا :

— طيب ، طيب .. اقعدى كلى معنا .

— لا ، أكثر الله خيرك . قد تركت نصيبى فى البيت وسأنتعنى
وحدى ..

فأسرع كمال يقول محاولا أن ينقذ ذمام الزعامة التي أوشت
هيبتها أن تنهار أمام الرعية :
— طيب ، مع السلامة .

وخرجت وطنية ، وأراد الدفراوى أن يغير الحديث فقد
أدرك أن اللهجة التي كانت تتحدث بها وطنية لم ترق كمالا . قال
الدفراوى وهو يأكل نصيبه من العشاء :

— هيه يا أبا كمال .. هل أنت آت معى غدا ، إلى لطيف بك ؟
فقال كمال :

— نعم ، فإن دعوته لك لم تكن إلا نتيجة طبيعية للخطأ
التي دبرتها .

فتسأل الثلاثة فى لهفة :

— كيف ؟

— ألم اطلب إليكم أن تشيعوا أن أفراد عصابة لطيف بك
هى التى قامت بهذه الحوادث ؟

ولم يبال كمال ثلاثتهم وهم يقولون : « آه » مذهولة ، بل
راح يكمل حديثه :

— لقد أردت أن يسمع لطيف بك بهذه الإشاعة فيرسل
إليك يا دفرأوى .

وسأل الدفرأوى :

— وماذا تريد منه ؟

قال كمال :

— إنه غدا سيسألك عن قام بهذه الاعمال .

فقال الدفرأوى :

— طبعا .

فقال كمال :

— إنه ركن يمكن الاعتماد عليه ، وكل ما أريده أن تقوم بيننا
صداقة ، فإننى أخشى أن يقضى علينا إن لم نصادقه .

فقال النمرود :

— يحميك الله من العوادى يا أبا كمال ، نذهب إليه غدا .

بعد المغرب إن شاء الله .

وقال كمال فى هدوء :

— أنا لا أخشى أحدا إلا أنور بك .

فقال الدفرأوى :

— أنور .. الله يخرب بيته ، إنه سيفقد لنا كالعقلة فى الزور ،
ووالله لولا عائلته لقتلته من زمن بعيد .

فقال كمال فى حزم :

— اسمع يا نمرود ، عليك أن تذهب غدا إلى « الرحايمية »
وتعرف إن كان أنور فى العزبة أم فى مصر .
فقال النمرود :

— أنا لا أعرف أحدا هناك ، فقد حرم عليهم أنور أن يدخلوا
الحشيش فقطع عيشى من هناك ، الله يقطع ..
وقال الدقراوى مقاطعا :

— الشهادة لله أهل الناحية يحبونه كل الحب .
فقال نور :

— والشهادة لله إنه رجل يحب .. كان إذا أتى إلى المديرية
همّ من بها جميعا إلى استقباله وتقديم الاحترام له ، وأشهد
أنه كان يعطى نفحات طيبة .. أما لطيف بك فمع أنه كان يعطى
نفحات طيبة هو أيضا إلا أنه لا أدري لماذا ..
فقاطعه كمال فى حزم :

— اذهب أنت يا نور واعرف لنا أين أنور الآن .
— حاضر ، سأذهب حين تكونون أنتم عند لطيف بك .

وراحت جماعة الخير تدبر الحديث بينهما ، كل ههما أن تقطع
الوقت حتى يأتى لها المال المنتظر ، أو حتى يلوح الصبح فقد
كان لهم مع هذا الصباح شأن إن هو سبق العشرين جنيتها
المفروضة على الشيخ حسن ، وطال الحديث ، وتناوب نوز

والنمرود والدفراوى القيام إلى الزهار فى موقفه ليروا إن كان
أحد قدم أم لا ، وكان الجواب دائما لا .

واقترب الفجر فأذنت الديكة والظلام لا يزال يلف الكون ،
وجاء الزهار يائسا فنظرت الجماعة إلى كمال . وأنعم هو فيهم
النظر واحدا بعد الآخر حتى إذا التقت نظراته بمنصور وقفت
عنده جامدة ، وفيهم منصور تلك النظرة فقام واقفا وخرج دون
أن يقول شيئا .

وقامت بقية الجماعة تزيل آثارها من الخص وأهالوا الرمال
على بقايا طعامهم ونيرانهم ، ثم هدموا الخص وتقاسموا قصباته
يحمل كل منهم بعضا منها ، ورحلوا عن مكانهم ملثمين جميعا
بعد أن القوا نظرة أخيرة على المكان ، أرادوا بها أن يتأكدوا
أن الرمال لن تتشى بهم أو تبوح .

- ١٣ -

استيقظ الشيخ حسن من نومه مع الفجر فوجد زوجته قد
سبقتة إلى اليقظة ، ووجد بالبيت ضجيجا وحركة ، فسأل
زوجته فأخبرته أنهم الأنصار الذين اتفق معهم صلاح أن يأتوا
ليحملوا القطن إلى سيارة التاجر . فابتدر الشيخ حسن وضوءه
وصلى الفجر وقد أحس أن المرض قد بدأ يزول عنه ، وما إن
انتهى من صلاته حتى سأل زوجته :

— وهل أخرجت لهم الفطور ؟

— نعم ، ولكن صلاحا لم يأت حتى الآن وأخشى أن تأتى
السيارة قبل مجيئه .

— لم يأت ؟ ! واين ذهب ؟

— ذهب إلى الحقل ليحضر بعض أطرافاً من أعواد الذرة
لتأكلها البهائم .

— كان عليه الا يذهب اليوم حتى يسلم القطن .

— إنه يذهب كل يوم ويعود فى الفجر ، وقد حسب أنه
يستطيع أن يذهب ويعود قبل أن تأتى السيارة .

فقال الشيخ حسن وقد داخله بعض التوجس :

— لا حول ولا قوة إلا بالله .. ما ضر لو كان انتظر اليوم
إلى أن ينصرف التاجر .

ثم قصد إلى الشباك فنظر منه فلم ير ابنه قادما ، ولكنه
رأى بباب بيته رجالا كثيرين فسأل زوجته :

— بالباب أحمد أبو خليل والشيخ رضوان والحاج على
ونور الكحلة ، وكثير غيرهم . ماذا جاء بهم في بكر الصباح ؟
فقال الزوجة متنهدة :

— لقد جاءوا ليبيعوا قطنهم إلى التاجر كما بعث ، فمعد
أصبحوا

وقبل أن تكمل فضيلة جملتها جاء من بعيد صوت نغير سيارة ،
ثم ما لبث الشيخ أن تبينها تقترب من بيته عالية الضجيج كثيرة
الجلبة .

وما إن وقتت السيارة بباب البيت حتى تحلق القوم
الواقفون بها ، ورأى الشيخ حسن من مكانه التاجر وهو يدافع
عنه القوم المتحلقين ليتمكن من النزول من السيارة ، حتى إذا
استوت أقدامه على الأرض سار بهم إلى المصطبة وجلس إليها
وقعد القوم حوله على الأرض ، بينما راح الحمالان القادمان
مع السيارة يعاونان أنفار الشيخ حسن في وضع القطن
بالسيارة .

وتوكل الشيخ حسن على عصاه حتى نزل إلى القوم فحباهم ،
وقام التاجر مرحبا بالشيخ حسن ، ثم ما لبث أن أخرج من
جيبه لفافة كبيرة من الأوراق الخطيرة الشأن وقال للشيخ
حسن :

— مبارك يا عم الشيخ حسن .

— بارك الله فيك يا أبا عليوة .. مباركة صفقتك إن شاء الله ،
وإن كنت قد أنقصت الثمن عن السوق خمسة جنيهات في القنطار
:... النهاية ... مباركة والسلام ... ذهب صلاح ليحضر طعام
البيهائم وتأخر فقلت أنزل إليك نشرب القهوة معا .
— أهلا وسهلا .. ثمن القطن ستمائة جنيه ، أخذت مائة
فيكون الباقي لك خمسمائة جنيه .

وعد أبو عليوة خمس ورتات أعطاها للشيخ حسن ، أخذها
هذا ووضعها في حافظته بينما راح الواقفون يباركون له وللتاجر ،
ثم راح كل منهم يكلم التاجر عما لديه من قطن ، وسرعان ما انعقدت
الصفقات بعد أن بخس التاجر أثمان القطن ، منتهزا فرصة
انفراده بالقرية لخوف التجار الآخرين منها ، وراحت أوراق خضراء
كثيرة تنشر وتطوى ، وراحت الفاظ التبريك تتناثر على الشفاه .
وكان قطن الشيخ حسن قد استقر على السيارة ، فقام التاجر
وقد وعد أن يعود في اليوم التالي ليتسلم الأقطان الأخرى ويسلم
أثمانها .

انصرفت السيارة بحملها ، وظل القوم حول الشيخ حسن
يتحدثون وهو عنهم لاه قد ازداد توجسه ، فهو ناظر إلى الطريق
لا يريم ، حتى إذا لحظ الجماعة انصرفه عنهم هموا بالانصراف ،
إلا أن واحدا منهم يسأل الشيخ حسن :

— مالك يا عم الشيخ حسن ؟

— تأخر الولد .

— من ؟

- صلاح ؟
- لا تخف ، لابد أن عائقا عاقه .
- لا يمكن ، ما كان شيء يعوقه عن تسليم القطن .. اللهم
- إلا ...
- يا رجل وحد الله .. وعلى كل حال ساذب إلى حقلك
- لأرسله إليك .
- لا تتعب نفسك ، فالأنفار الذين كانوا يحملون القطن
- ما زالوا هنا ينتظرونه ليعطيهم أجورهم ، فهو من يعلم مقدارها .
- ونادى الشيخ حسن :
- يا سيد .
- نعم يا عم الشيخ حسن .
- وحياء والدك اذهب إلى الحقل وانظر ما الذى أخر
- صلاحا حتى الآن .
- حاضر .
- وانصرف سيد وراح القوم يتحدثون مرة أخرى ، ولكن
- الشيخ حسن لا يزال منصرفا عن حديثهم حتى يسأله الحاج
- على :
- مالك يا شيخ حسن ؟ الآن ابنك قد تأخر بعض الوقت
- تخاف كل هذا الخوف ؟ لا يا رجل ، لم نعهدك هكذا ، أم تراها
- هذه الحوادث أخافتك إلى هذا الحد ؟ !
- اسكت يا جعلى أنت لا تعرف شيئا .
- لا أعرف ماذا يا شيخ حسن ؟ ! لا أعرف ماذا ؟ هل
- هناك شيء ؟

— لا شيء يا جعلى ، لا شيء ، سليمة إن شاء الله .
 — قل لنا يا شيخ حسن ، هل هناك شيء لا نعرفه ؟
 وقبل أن يجيب الشيخ حسن ، يتعالى صياح من أقصى الطريق :
 — الحقونا يا هوه .. الحقونا يا ناس .. ابنك يا شيخ حسن .. ابنك
 وينسى الشيخ حسن المرض وينسى عصاه ، ويلقى بجسمه إلى الطريق لا يعي شيئاً إلا هذا الهول الذى يناديه من أقصى الطريق :
 — ابنك يا شيخ حسن .
 وينتفض صوت الشيخ وهو يقول :
 — ماله ابنى ؟ .. ماله .. قتل .. ماله .. ماله ابنى ؟ ماذا جرى له ؟
 ويأتيه الصوت من قريب يحمل إليه الفاجعة :
 — ابنك قتل يا شيخ حسن . قتل ..
 وينهد الشيخ حسن إلى الأرض ذاهلاً :
 — قتلته .. قتلت ابنى .. حسبى الله ونعم الوكيل .
 ويرتفع الصراخ من أعلى المنزل تطلقه الأم الثكلى ، ثم ما تلبث أن تندفع من الباب فى ثياب البيت فيتصلق حولها الشباب وبأخذون بها إلى داخل المنزل مبهورة عالية الصراخ ، تدافعهم عن نفسها تريد أن تذهب إلى الحقل لقرى ابنها الصريع . وما تلبث النسوة من الجارات أن يقدن إليها فيأخذن مكان الشبان الذين يخرجون إلى الحقل بعد أن أخذوا معهم ملاءة

يلفون بها الفتى القاتل . ويحيط القوم بالشيخ فيحملونه إلى
المصطبة وهو ما يزال يقول ذاهلا :

— قتلتة .. قتلت ابني .

ويسأل الحاج على :

— وما ذنبك أنت يا شيخ حسن ؟ .. ما ذنبك أنت ؟

ويقول الشيخ حسن وهو ذاهل لا يزال :

— كبر على أن يهددنى المجرمون فأبيت أن أدفع لهم ما يطلبون

.. لم أكن أظن أنهم سيقتلون .. حسبتهم لصوصا ولم أحسب

أنهم قتلة .. حسبى الله ونعم الوكيل .

نظر الحاج على إلى من حوله فى أسف شديد متوهما أن

الشيخ قد أصبح مدخول العقل ، ولكن توهمه لم يمنعه أن

يسأل الشيخ حسن :

— ماذا تقول يا شيخ حسن ؟

وثاب الشيخ حسن إلى نفسه بعض الشيء حين رأى النظرات

الحائرة من حوله تكاد تتهمه بالجنون .

ولو كان الشيخ فى تمام وعيه ، ولو أنعم النظر فى عيني

نور لرأى فيهما .. وفيهما وحدهما أنهما غير حائرين ، بل إنهما

جامدتان تحملتان إلى الرجل فى تشويق العارف بالأمر

لا يحدهس .. ولكن من أين للشيخ المبيض وعى ؟ ومن أين له

أن ينعم النظر ؟ لقد كان قصاره أن يثوب إلى نفسه بعض

الشيء فى زحمة هذه الحيرة التى أشاعها فى الواقفين ، وكان

قصاره أن يدرك أنهم لا يعرفون من أمر خطاب الأمس شيئا ،

وفى نظرات غائرة يخرج الشيخ حسن الخطاب من جيبة ويعطيه

الحاج على ، ويقرؤه الرجل ثم يخطفه منه من يليه ، ويروح
الخطاب يلف نى الأيدى بين أعين جازعة حيرى ينظر كل منهم
إلى المستقبل الذى ينتظره ، وتزداد الأيدى الخاطفة أو الأعين
الهالعة غليس بين الجمع إلا من أخذته الرعدة إلا نورا ..
وحده الذى كان ثابت الجأش راسخ الفؤاد ، وقد وصل
الخطاب إلى يده وتظاهر بقراءته بينما كانت عيناه تدوران غيمن
حوله ، يريد أن ينتهز منهم غفلة ليضع الخطاب نى جيبه . ولكن
هيهات ، فقد كانت العيون كلها على الخطاب ، وما لبثت يد
ان اختلطت الخطاب من يده قبل أن يفكر فى الوسيلة التى
بخطفها به . وأخذت الرعدة طريقها ثانية إلى القلوب بعد أن
كانت قد توقفت عن سيرها قليلا عند نور ، حتى الفقراء الذين
لا يملكون شيئا والذين عرفوا أن بالخطاب بشيرا لهم بالغنى . .
حتى هؤلاء لم يملكوا نى هول الموقفة إلا أن يرتعدوا مع الراعدين .
وما هى إلا بعض الساعة حتى عاد الشباب بالجثة ، وحتى علا نى
أجواء قرية السلام صوت القنبلة رقبيا ضخما عاليا ، تفرعها يد
ثبته وأعية هى يد كمال .

- ١٤ -

وقيدت الحادثة ضد مجهول ، كما كشف الخطاب عن شيء للنيابة ، فما كان أحد ليعرف خط كمال وما كان أحد ليفكر فى كمال ليستكتبه .

لم يكشف الخطاب عن شيء للنيابة ، ولكنه كشف للملاك قرية السلام الطريق الذى لابد لهم ان يتجهوه . لقد عرفوا انهم لا بد لهم ان يذمعو الإتاوة التى تفرض عليهم ، وعرفوا انهم إلى الموت إن فكر واحد منهم أن يشئ بالخطابات التى ترد إليهم مع الليل .

وحاول الشبيبة المثقفون فى القرية أن يثثوا القوم عن طاعة الأوامر ، ولكن هيهات لهم أن يصلوا بشجاعة الفاظم إلى القلوب الراحدة بين أضلاع القوم المساكين . وراح التاجر أبو عليوة يخرج كل يوم باقطنان من القرية فتعرف القرية أن الإتاوات قد دفعت مساء أمس عن كل قنطار خرجت به سيارة التاجر صباح اليوم .

وقد كان يصاحب كل سيارة خارجة حركة نشاط من المثقفين ، ولكنه نشاط يبلغ مصيره دائما إلى الفشل ،

وكان فخرى قد جاء إلى القرية تلبية لأمر أبيه ، واستقبلته

الفاجمة فى بيته فراح يبدل كل جهده أن يصل إلى خسيط يهديه ، ولكن من أين له والفرائص من حوله ترتعد ، والالسن لا تملك أن تتحرك خفية فى أمواها ؟

لقد كان أمر أفراد العصابة مجهولا ، وفى ستار الجهل بهم كانوا يعرفون ما يدور بالقرية جميعا ، فإذا القرية وقد غشيها الذمر الراجف ، تلتقى الأعين حسرى كليله ، ويدور الحديث ، كل حديث ، فلا يلبث أن ينتهى إلى صمت مفاجئ ، ويطرق المتحدثون . فقد كان كل حديث يؤدى بهم إلى الرزء الذى انحط على القرية ، والذى لا يستطيعون أن يصفوه فقد ملأهم الخوف أن يصفوه .

الشك والريبة والمهانة والخوف . يحذر الأخ اخاه والاب ابنه والابن أباه . النسوة ذاهلات حيارى ، لقد رأين رجالهن ضعافا خائعين فائعدمت الثقة فى نفوسهن ، فما أصبحن يثقن بأحد ولا بشئ .

العمدة جازع تزداد نفسه ذلة أمام نفسه ، رائه كل يوم غاد إلى المركز ومنه لا يدرى ماذا يقول .. أيقول إنه دمع الإتاوة هو أيضا وإنه لا يدرى إلى من دفعها ؟ .. أيقول إنه وهو العمدة قد تلقى الرسالة مثل من تلقاها ؟ وأنه خرج من باب الحريم فى دواره وذهب فى بهيم الليل إلى خص فى عرض الصحراء ، ودفع إتاوة إلى قوم ملثمين لا يبين منهم شئ فى ذلك الضوء المتهاافت الذى اصطنعوه فى خصهم ؟

ماذا يقول العمدة وماذا يفعل ؟ إلا عبرة تتحدر من عينيه كلما ذكر وقفته من جماعة الخير وهم جلوس ، ودفعه لهم المال

يكاد يرى السخرية به في أعينهم الخبيثة ، بل في أيديهم التي امتدت إلى ماله ، والتي كانت مغطاة هي أيضا بالتقنيزات القطنية ؟ . ماذا يقول العمدة وماذا يفعل ؟

وانفذ كمال وعده إلى الفقراء فقد كانت تهبط عليهم صياغة من المال من حين إلى حين ، وكم فرحوا حين وأفتهم الدفعات الأولى ثم كم حزنوا بعد حين .

لم يكن هؤلاء الفقراء إلا الأجراء الذين يعملون بالآجرة في حقول الملاك الصغار ، وقد كان شأنهم في هذا الميسم أن يستأجروا ليبدؤوا البرسيم تحت الذرة ، ولكن الملاك لم يستأجروا واحدا منهم ولم يبدؤوا البرسيم ، بل إنهم حتى لم يفكروا في قطع الذرة وتهيتها للبيع . وكيف لهم أن يفعلوا وهم لا يدرون ماذا يحمل لهم الغد ! أتعيش بهائمهم لتساكن البرسيم ؟ أبيع الذرة إذا قطع ؟ .. لا يعرفون فهم لا يستأجرون أحدا ، وبحسبهم ما معهم من ثمن القطن يعيشون به وتعيش به بهائمهم أيضا ، حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .

الفقراء أيضا في حال من السخط الشديد ، فما كانت الأموال المنجأة لتغنيهم عن الأجر المنتظم ..

مجلسان في القرية لم ينقطع فيهما الحديث فجأة ، ولم تلتق فيهما العيون حسرى كليلة : المجلس الأول هو مجلس كمال ، وقد كان يأخذ فيه مكانه من الأرض صدر الليل ، حتى إذا انتثر عنه الناس وانفضوا إلى بيوتهم وخلا بهم المجلس ، ارتقى كمال مكانه على الأريكة ، أما الأرض فهي لأى واحد منهم غيره . وقد تنبهوا بعد الليلة الأولى أن يتركوا بهذه الحجرة

الزهار أو النمرود إذا خرجوا هم إلى عملية لهم ، حتى يبيع ذلك المتروك المخدرات إلى من يقتصد إلى بيت النمرود في أغوار الليل . وقد أمر كمال أن يكون البيع دائما خارج البيت حتى لا يكتشف المشتري خلو الحجرة منهم عندما تخلو ، على أنهم لا يلبثون بعيدا عن الغرفة إلا ريثما يتم تسليم المبلغ المفروض ، ويذهبون إلى المغارة يودعونها أسلحتهم ثم هم ينقلبون إلى حجرة النمرود مرادى .

وأما المجلس الآخر الذي اتصل فيه الحديث فهو مجلس الحاج على ، الذي تخلى عنه الحاج إبراهيم ليحل محله أحمد أبو خليل الذي لم يدفع بعد مؤخر الرشوة إلى الشيخ رضوان . وقد اتصل الحديث بينهم لأنهم كانوا يمتدحون ما تقوم به جماعة الخير ويذيعون هذا الحديث ويروجونه ، فقد كان النفاق في دمهم لا يطيقون عنه محيدا . وقد كانوا جميعا أضيق ما يكونون بجماعة الخير فقد دفعوا هم أيضا — ما عدا أحمد — الإتاوة المفروضة عليهم ، ثم ارتأوا أن يذيعوا بين الناس أنهم دفعوها حبا في الخير ، واقتناعا بالفكرة التي تسعى إليها جماعة الخير . . يحاولون بذلك أن يدافعوا عن كرامتهم التي هتكها الإيجار ، وتبعهم في قولهم بعض القوم ليظهروا أمام نساءهم أنهم أشداء وإن كانوا قد دفعوا الإتاوة ، وأنهم كرماء يطيب لهم أن يمدوا للفقير عونا . .

كان هؤلاء قلة على أية حال ، وكانوا إذا خلوا بأنفسهم صارحتهم أنفسهم بحقيقة أمرهم فأصمتوها خشية أن يطلع أحد على خبيء نفوسهم ، أو خشية أن تتم عليهم نفوسهم . . نعم

لقد كان أبناء قرية السلام يخشون من أنفسهم أن تثنى بهم
أنفسهم .

أمر كمال ألا يفتلى أفراد الجماعة في إظهار ما لهم الذي
كسبوه من أعمالهم . فقد كان يخشى أن يدل ثراء المظهر على
ما تدرؤه الأخصاص والمغارة والظلام عن العيون . ولكن أملا
كان يتردد في نفس الزهار أراد اليوم تحقيقه ، إنه الأمل الذي
بثه كمال إلى نفسه حين كان يجذبهم إلى إنشاء الجماعة . .
سعدية .

استأذن الزهار كمالا أن يحقق أمله اليوم فليس أصلح من
اليوم ليحقق أمله ، فالزوج قد طلق والمنافس لا يطيق أن
يطاوله بالمال ، والطريق معد ولم يبق إلا السير فيه . . أذن له
كمال وأعد له ما يقول عن أسباب غناه ، فحفظه ومضى شأنه
إلى سعدية التي أتابت بيت أبيها حتى يبيع أحمد قطنه ، وحتى
يبيع أيضا بعضا من قراريطة ويهيئ لها العيش الذي تصبو
إليه . وكان أبو سعدية قد مات بعد أن زوجها إلى صالح ،
وكانت أمها ضعيفة لا تملك من أمر ابنتها شيئا ، فأصبح أهر
سعدية كله بيدها .:

— كيف أنت يا سعدية ؟

— أهلا زهار . . يا ترى أنظف في زيارتك أم تحمل معك
تهمة من التي توزعها ؟

— لا . . نظيف والحمد لله . . سمعت يا سعدية أنك ستتزوجين
من الولد أحمد ؟ !

— وما لزوم ولد هذه ؟

- إذن فأنت ستتزوجين منه ؟ !
- وماله ؟ هل نى الزواج عيب ؟ !
- لا عيب به إن كنت تختارين من يليق بك .
- وماله أحمد ؟
- من أجل الفدائين ! . .
- فدائين وعشرين قيراطا . . هل تملكها أنت ؟ !
- لا أملك أرضا ، ولكنى أملك مالا .
- أتسمى هذه القروش التى تنحتها مالا ؟
- مرى أنفذ . . وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان .
- من أين لك ؟ لو كنت أكثر جرأة مما أعرفه عنك لقلت
أنك من جماعة الخير .
- يا ليتنى كنت . . يا ليت ؟
- والله لو دخلتها لخربت .
- يا ستى مالنا ومالهم ؟ . . أجيبى فيما أسألك .
- أجبنى أنت أولا . . من أين لك المال ؟
- شاركت النمرود . . أذهب أنا إلى البلاد ويقيم هو هنا ،
وقد أناد هذا التجارة لأن المخبرين لا يعرفوننى ، فاستطعت أن
أبيع صفقة كبيرة .
- ورأت سعدية أن كلام الزهار معقول ، وهى تعلم أن
التجارة التى يعمل بها نذر الربح الوفير ، وهى ترى أن أحمد
يظاولها وإن كانت أمذاره فى المطاولة واضحة لا ريب فيها . .
وهكذا رأت الا تتطع الأمل من نفس الزهار فتضمن زيجة



على أية حال .. فإن لم تتم الزيجة بمن تحبه فلتكن زيجة بمن يحبها ، فقلت فى اهتمام :

— والله طيب يا زهار .. فانت تكسب كثيرا الآن .

— أكثر مما تعلمين به ، وأضعاف ما سيأتيك به أحمد .
وإنك تعلمين أنني أحبك قبل أن تتزوجى من صالح .. لقد
أحببتك وطلبت الزواج بك قبل صالح وأحمد . لماذا لم يطلب
أحمد الزواج بك قبل صالح ؟

— انتجاهل ؟ .. الا تعلم أنه كان حينذاك فقيرا لا يملك
شيئا ، فقد كان أبوه لا يزال يحيا ، وكان — كما تعلم — بخيلا
فلم يرض أن يعطيه ما يتزوج به .

— ولكننى كنت أحبك أكثر من أى إنسان فى الدنيا ،
الا تعلمين ذلك ؟

— أعلم .. يا زهار ، ولكن أحمد ماذا أقول له ؟

— لا تقولى شيئا ، أما ترين أنه حتى الآن لم يتزوجك .

— معذور والله ، وأعلم عذره .

— وما عذره ؟

— أراد أن يبيع بعض قراريط من أرضه فلم يستطع ، فإنه
منذ أخذت جماعة الخير الإثارة عن الفدان الذى باعه عبد الحبيد
إلى عبد الجليل شيخ الخفراء ، والبيع والشراء قد انتطعا من
البلد تماما . وقد حاول أن يبيع فداننا فى السر إلى الحاج
إبراهيم ، وتمهد أن يقوم هو بالزراعة إلى أن يكشف ربنا
الغم .. الغمة ، حتى لا تعرف الجماعة أنه باع شيئا ، ولكن
الحاج إبراهيم كان قد أقسم يمين طلاق الا يشتري منه ، وعرض

- عليه الفدان بأربعمائة جنيه فلم يقبل الحاج أن يشتري .
- هيه .. ولماذا لم يبيع القطن ؟
- والله الله أعلم !
- ولماذا لم يبعه إلى أبي عليوة ، لقد سمعت أنه قبض منه
- العربون .
- الله ، ولد يا زهار ، ستجعلني أقول لك كل أسرار
- الرجل ؟ !
- يا ستى وهل بيننا سر ؟
- لقد جعلني أقسم ألا أبوح بهذا السر .
- وهل إذا قتلته لى تحننن بيمينك .. ؟ أنا نفسك يا سعدية ،
- لم تعرفى هذا بعد ؟
- عارفة يا زهار .
- وصبتت بعض الحين ، ولكنه أبى عليها الصمت .
- هيه .. ماذا سيفعل أحمد ؟
- أخاف يا زهار أن تقول لأحد .
- يا سعدية اتقى الله .. أنا أنيع سرا لك .
- لقد أقسم أحمد على المصحف ألا يعطى جماعة الخير
- إتاوة على قطنه .
- عجيبة .. وما الداعى ؟ أهو الرجل الوحيد بالقرية ؟
- لقد باع أغلب الأعيان أقطانهم ودمعوا الإثارة ، أهو أشجع من
- العمدة أم من الحاج على أم من نور الكحلة ؟
- أراد أن يثبت أنه أشجع منهم جميعا .
- عجيبة .. ولماذا أراد أن يثبت هذا ؟ !

— كان يتكلم معى وجرى الحديث عن الجماعة ، فقال إن
البلد ليس فيه رجال وإنهم جميعا نسوان ، فقلت له : وماذا
فعلت أنت ؟ وعيرته بأنه يمدحهم فى مكان الحاجلى فأخذته
الحمية ، وأقسم الا يعطى الجماعة إتاوة ، وأن يبيع القطن برغم
الجماء .. الجماعة .

— هيه .. والله رجل .. وماذا سيفعل ؟
— احذر يا زهار أن تبوح بهذا الحديث لاحد .. إنها حياة
رجل وأنت المسئول عنها .
— أتشكين يا سعيدة .. ؟ إذن فلا تقولى السر .
— سأقوله ، ولكن أقسم أولا الا تبوح به لاحد .
— وحياتك .

فابتسمت سعيدة وتابعت حديثها :
— ذهب اليوم إلى المديرية ليتفق مع أبى عليوة على أن
يسلمه القطن فى المديرية بعد عد صباحا ، وسيذهب إلى النمايلة
ويستأجر منها جملين حتى لا يعرف أحد هنا ما ينوى أن يفعله ،
وسينقل القطن فى مساء الغد دون أن يحس به أحد .
— ولكن .. ان تعرف الجماعة أنه باع قطنه فى الصباح ؟
— إنه هو من سيحمل القطن ويخرج به فى المساء ، ثم يقفل
المخزن فلا يعرف أحد أنه سلم القطن .

— ومن أين عرف أن النمايلة ليس فيها عيون للجماعة ؟
— لن يخبر أصحاب الجمال بما ينوى أن يفعله ، وإنما
سيطلب إليهم أن يسلموه الجمال ليردها إليهم فى اليوم التالى
لنقل القطن ، وسيضاعف لهم الاجر .

— والله لثيم .. النهاية .. انا سأغنيك عن قطنه وقراريطة
وكل ماله .. ما قولك ؟

— أشوف يا زهار .. أهلنى أسبوعا أفكر فيه ..
— وهو كذلك يا سعدية .. سيكون أطول أسبوع فى حياتى
.. أتركك بخير يا سعدية .
— وأنت من أهل الخير يا زهار .



لم يكن الزهار صاحب القلب الوحيد الذى يتصل أهله
بجماعة الخير ، وإنما كان هناك قلب آخر اتصل أهله بهذه
الجماعة .. أو هو فى الحقيقة أمل ظل يراود صاحبه وخشى حين
تألفت الجماعة ألا يتحقق .. ذلك الأمل الذى ظل يتردد فى قلب
وطنية السنين الطوال أن تتزوج من كمال ، والذى ضعف بعض
الشيء حين أنبأها كمال أنه صائر إلى الغنى ، والذى ازداد
ضعفا حين أهدى إليها كمال الجلباب الأحمر والمنديل ، والذى
لا يزال يضعف كلما رأت الأموال تتدفق فى يد كمال . وكلما
ازدادت ضعف الأمل ازدادت تثبث صاحبه به . وفى غمرة من هذا
التثبث قصدت وطنية إلى كمال فى بيته شأنها كل يوم منذ
تألفت الجماعة ، إلا أنها اليوم وفى هذه الغمرة قد انتوت أن
تطالبه بأن ينفذ ما وعدها به يوما .

— صباح الخير يا كمال .
— صباح الخير يا وطنية
— هل ستخرج الآن ؟

- لا ، ما الأخبار في البلدة ؟
- كما هي ، يدعو لك بعضهم من لسانه ويدعو عليك جميعهم من قلبه .
- فينتفض كمال جازعا :
- أعرفوني ؟
- لا ، وكيف لهم أن يعرفوك وأنت أمامهم كما أنت تلبس أثواب المسكنة ، حتى إذا خلا بجماعتك مجلسك خلعت الستار وارتددت إلى طبيعتك ، تدبر القتل والخوف والجزع وإصابة أموال الناس بالمأطك ؟
- فكيف يدعون لي أو على ؟
- يقولون جماعة الخير . . السبت الجماعة ؟
- أعوذ بالله ، أبهذا تصبحيني ؟
- إن لم أقل أنا لك الحق فلن يقوله أحد .
- ومن قال لك إني أريد الحق منك أو من غيرك ، وعلى كل حال لماذا يدعون على من قلوبهم ؟
- ألم تحرم عليهم أن يبيعوا أقطانهم إلا بالإتاوة ، وفرضت على بهائم الإتاوات ، وفرضت الإتاوة أيضا على بيع الأطيان ؟
- كل من يملك أقطانا وبهائم وأطيانا غني ، والفقراء أكثر من الأغنياء .
- من قال لك ذلك . . ؟ من قال إن كل من يملك بهيمة أو قطنا أو أرضا غني ؟ ومن قال إن هؤلاء كثرة ؟ ليس في قريتنا إلا قلة نادرة لا تملك شيئا . وحتى هذه القلة غير راضية عنك ، فالأجراء أصبحوا لا يستأجرون ، وأصحاب الأرض جميعا وقف حالهم ،

ثم هم يقولون إنك فرضت الإتاوات لتأخذ معظمها لك وتعطيهم منها الفتات الذى لا يغنى . . لا يغنى أبدا بعد أن وقف عنهم الخير الذى كان يأتيهم ممن يستأجرونهم .

— والله أصبحت فصيحة ، ولكن كلامك فارغ ، فإن كل من يعمل خيرا فى هذه الدنيا لابد أن يجد من ينتقده . ولابد أن يجد الناس وسيلة ليجعلوا هذا الخير الذى يقوم به صادرا عن غرض فى نفسه غير الخير ، ولذلك يجب أن يعمل الإنسان الخير ولا يهتم بالناس .

— حكم . . والله حكم ، ولكنها للأسف صادرة عن ضال ، أتعلم أن السرقة خير ؟ عجيبة ! يا كمال أرجع فإنى والله أخشى عليك أن لم ترجع .

— ومالك انت رجعت أم لم أرجع ؟

— مالى أنا يا كمال ؟ .. مالى أنا ؟ .. أنسيت كل شيء يا كمال ؟

— كلامك يثير الغضب والخوف يا وطنية .

— من خوفى عليك يا كمال ، الا تعلم يا ابن الكلب انه ليس لى فى الدنيا غيرك .

— أما آن لك أن تنتهى عن الشتيمة ، لم أصبح كمالا الذى كنت تعرفين .

— نعم انت محق ، لم تصبح كمالا الذى كنت أعرف ، واين أنا منك الآن ؟ انت لمس يملأ الدنيا ذعرا وأنا وطنية ما أزال .

— لا ، أنا لا أقصد هذا . ولكن لسائك تعود شتى وأنا الآن

محترم امام الجماعة إلا منك .

— وطبعاً احترام الجماعة لك يمنعك أن تنفذ وعدك .

— وعدى . . . أى وعد تقصدين ؟

— ذلك الوعد الذى كان الفقر يمنعك من تحقيقه ، إلا تذكره . . ؟

الإ تذكر يا ابن الـ . . نسيت ؟ فأنت تمنعنى من لختى الوحيدة
فى الحياة . . تمنعنى من شقيقك .

— أى وعد ؟ ، ذكرينى .

— والله لا أفكر به أبداً ، إن كنت لا تذكره فلا جعله
الله يتم .

— آه ! تقصدين الزواج ؟ وهل هذا يحتاج إلى تذكير يا وطنية ؟

وهل لى غيرك ؟

— نعم . . نعم . . اشتغل على أنا الأخرى اشتغل ، كائى

فرد من جماعة الخير . . يا كمال طالما قلت لك إنى بنت حرام

وهذا اللف لا ينطلى على . ، فأنا أعلم أن لك غيرى ولكن نجوم

السماء أقرب إليك منها . وأنا أعلم أنك تصانعنى لأنى أعرف

أسرارك جميعاً ولأنك تحتاج إلى . ولكن اسمع يا كمال ، سأنتظر

بأننى أصدقك لأنى لا أملك إلا هذا التظاهر ، ولكن لا بد لك أن

تصنع لى سبباً مقنعاً يجعل تأجيل زواجك منى معقولاً .

— إن هذا لا يحتاج إلى صنعة ، أخشى إن أنا تزوجتك أن

تتجه إلينا عيون الناس ويتساءلون : من أين لك مال أو وطنية

بالمال ؟ ولكن قولى لى ، من هى غيرك هذه التى تجدينها أبعد

عنى من نجوم السماء ؟

— كمال ! ألا تعرفها ؟ !

— من تقصدين ؟

— ستك درية .

ويسكت كمال لحظة ذاهلاً ثم يقول :

— عجيبة !

— وما العجيبة ؟

— أن تفكرى هذا التفكير .

— أهكذا .. لعلى مخطئة .. سأنتظر يا كمال ، سأنتظر

يا ابن الـ ..

وقبل أن تكمل وطنية وصف أبى كمال يطرق الباب فتفتحه
وطنية ليدخل الزهار ، الذى ما يلبث أن يقص على كمال ذلك
الخبر الذى خرج به من مغابته الغرامية ، ويقول كمال فى صوت
حازم وهو يتهيا للقيام :

— ادع أفراد الجماعة ، سنجتمع فى بيت النهرود .

- ١٥ -

كان الفجر يطلع على قرية السلام بطيئا شاحبا حين صحا
العبد العمدة من نومه ينادى الخادمة أن تحضر إليه ماء الوضوء ،
وما كان يفعل حتى سمع صوتا من دون الشباك عاليا أنكره
أول أمره ثم ما لبث أن تبينه ، إنه كمال وإن كان صوته قد
اكتسى قوة ، وزايله وهن واستعطاف :
— أطل الله عبرك يا حضرة العمدة .

— أهلا أهلا كمال ، اترى الوقت وقتك يا كمال ؟

— إنه وقتي يا حضرة العمدة لم أتقدم عنه ولم أتأخر . .

— خير ؟ ماذا تحمل إلينا من أخبار . . ؟ من زمان لم أرك .

— أخباري كلها تعرفها ، أصبحت لا أصيب قوت يومي .

— لماذا ؟ ألم تتقدم لك فاطمة النطور ؟

— لا . . ليس هذا ما أتصد إليه ، وإنما انقطعت الأنراح

وقد كنت أصيب منها ما يقيم الأود أياما قد تصل إلى شهر .

— الله معنا يا كمال .

— يا حضرة العمدة . .

— هيه . . . ماذا تريد ؟

— إلى أين أنت ذاهب اليوم ؟

- وما شأنك ؟
- مجرد سؤال فقط .
- ذاهب إلى المركز ، وهل أصبح لى عمل فى هذه الأيام
- إلا المركز أروح إليه وأغدو ؟
- آه !
- ماذا تريد أن تقول يا كمال ؟
- لا شيء .
- أحس فى صوتك رنة من يريد أن يقول شيئا ، قلّه .
- سمعت أن أنور بك قد جاء من أوربا مساء أمس ، ألا تذهب
- إليه ؟
- وماذا أفعل له ؟
- تهنئه بسلامة الوصول وتسأله أن يبحث لنا عن حل
- لمشكلتنا هذه .
- وماذا بيده أن يفعل يا بنى ؟ وما أظنه إلا سيعلم بمصيبتنا ،
- ولكن ماذا يفعل ؟
- يقيم الدنيا ويتعدها .
- الدنيا قائمة قاعدة من غير أنور بك ، وأنور بك رجل
- حنبل لا يتبل إلا العمل القانونى والقانون لا يسعف اليوم ،
- وإنما الذى يسعفنا العمل الحاسم العاجل . . ماذا نفعل بالقانون
- أمام السلاح يا بنى . . ؟ إن هؤلاء المجرمين الذين سلطوا علينا
- يعلمون أن القوة هى القانون . . لقد كان لطيفاً خليقا أن يتفenna
- اليوم ، ولكنه اكتفى بزيارتي ولم أطلب إليه يومذاك شيئا ، معتمدا

على أن المأمور سيسمح لى بترخيص بعض الأسلحة ولكن
المأمور رفض .

فسأل كمال وعلى فمه شبح ابتسامة :

— ولماذا لم تذهب إلى لطيف ثانية ؟

— ذهبت ..

— لماذا عمل لك ؟

— قال .. قال كلاما ولم يعمل شيئا : « أنا تحت أمرك ..
سألكم المأمور .. وأبلغ الداخلية » . ومعنى هذا أن أذهب أنا
فى داهية ويبقى المجرمون .. وحين قلت له إني أريد رجاله
لأحمى بهم القرية ، قال إن رجاله لا يعملون لغيره .

وازدادت الابتسامة اتساعا على فم كمال فقد عرف كل
ما كان يريد أن يعرف .. العدة لا يريد أن يلجأ إلى الداخلية ،
فهو لن يذهب لأنور بك لأن هذا لن يفعل شيئا إلا الالتجاء
إلى الداخلية ، وبهذا الخوف نفسه امتنع المأمور عن الاتصال
بالداخلية . والعدة والمأمور كلاهما يرجوان من أعماق أنفسهما
أن يظل أنور بك جاهلا أمر جماعة الخير بعض الوقت حتى لا يعلم
الرؤساء بالخبرة التى يعانين منها . أما ما قاله لطيف بك فهو
لا يعدو تنفيذ الاتفاق الذى تم بينهما ، حين دعا منصورا فراققه
إليه كمال .

وقد كان لطيف خليقا أن يجيب أى رجاء للعدة الذى يريد
أن يصطنعه للانتخاب القاتم ، إلا أن يكون هذا الرجاء حربا
على قوم ضمهم هو إلى رحابه .. أى رجاء إلا هذا ! فقد كانت

حياته أغلى من الانتخاب ، ولا يحب أن يؤلب المجرمين على
حياته .

وما كان كمال يريد إلا معرفة هذه الأمور وقد عرفها ، فقد
شفله مجيء أنور بك ، وخشى أن يقصد إليه العبدة فيضيق
عليه الخناق . . وقد كان كمال يخشى أن يضيق عليه الخناق
وهو — بعد — لم يثبت دعائمه ، ولم يرسها على العبد التي
يبتغيها لها .

دارت بذهن كمال هذه الأمور وهو يستأذن العمدة أن يدخل
إلى الدوار ليصيب فطوره ، وليصيب أيضا ذلك الشيء الذي
ما زال يهفو إليه . . نظرة من درية .



أقبل المساء على القرية فالوى القوم جميعهم إلى البيوت
يخودون عن أنفسهم ذلك الجو القاتل الذى شاع فى القرية ،
والتقت أعين الأزواج والأولاد على نور المصباح المتهافت
فأحسست القلوب فى أضلاعها رجفة ، هى هزة الخوف من النفس
المجهول ، فما يعلم أحد بماذا يطلع عليهم الصباح . وهى هزة
الحب اغتلى فى أفئدتهم . . الحب للحياة التى يحيونها لا يريدون
أن يفارقوها مهما تلاقى بهم هذا العنت الذى تلاقىهم به ، والحب . .
حب الزوجات الأزواج حسن وحب الأزواج لزوجاتهم ، وحب
الأبناء لوالديهم وحب الوالدين لأبنائهم ، يبلغ اقصاه فى فورة
الأحداث الراعدة حواليتهم . والحب . . حب الجميع لله الكبير
أملهم الذى لا أمل لهم غيره ، وملأهم الذى لا ملاذ لهم إلا هو ،

ومن خلال هذه الخيوط الناعمة القوية من الحب، ومن خلال هذه النظرات الصامتة العميقة ، يستمد القوم بعض طمأنينة تسكن إليها نفوسهم المضطربة بعض السكون .. بعض سكون يستطيع أن يصحبهم إلى نوم ، وإن يكن نوماً مفزعاً ينتظر النذير أو ينتظر الكارثة .

فإن مررت ثمة بالقرية فلا نيران ولا سمر ، ولا جماعات تتحلق ولا أفراد تروح أو تغدو ، إنما هم الخفراء في جلابيبهم علقوا على اكتافهم بنادقهم لا يستعملونها ، فقد استعاضوا عن الأسيرة في الهواء بكحة يستعملونها يسلمها خفير إلى خفير . حتى الضفادع والصراصير ، حتى الكلاب النابحة أحست بما أصاب الناس فهي في صمت مطبق ، فإن صات أحدها لم يجد جواباً فيعود إلى صمته .. إن مررت — لا قدر الله لك أن تمر — لتشوقت إلى هذا الضجيج الذي كانت الضفادع والصراصير والكلاب تثيره في القرية .. ولتمنيت — وأن كنت تكره أصواتها — أن تعود الضفادع إلى النقيق والصراصير إلى الصغير والكلاب إلى النباح ، ولرايت في أمينتك هذه أملاً ضخماً ترجو أن يتحقق وإن أصاب السمع منك بما لا تحب .. نعم .. وإن ..

حتى الضياء الخافت الذي كان يتسرب من البيوت قد أتفلت دونه ألواح غليظة من ضلف النوافذ ، فهو ثمة حبيس مع الناس لا يرى إلى القرية ولا يشتهي أن يراها .

ليس في القرية صوت وليس في القرية نار وليس في القرية نور ، ولكن ضياء في السماء يأبى أن يترك القرية في سوادها

الصامت الحزين ، فثمة قمير صبي يطل على القرية بشعاعات
تغشاها ، فهي في زرقة من الضياء . فإن مررت — لا قدر الله
لك أن تمر — لأمكنك أن ترى طريقك وأن ترى أيضا رفيق
طريقك .

في المساء الأزرق ، وفي هذا السكون الهاجع ، خرج
أحمد أبو خليل متسللا متشحا بالسواد من حظيرة بهائه ،
يسحب من خلفه جمولين وقد حمل على كل منهما كيسين من
القطن ، وسار بهما وجهته إلى المدينة يريد أن يبلغها في الصباح .

وفي هذا المساء نفسه كان فتحي خفير العمدة ينتظر العمدة
ومعه حمارة عند المطار ، تنفيذا للأوامر التي أرسلها في قطار
الظهيرة الذي كانوا ينتظرونه فيه ، تلك الأوامر التي تنيد أن
المأمور قد أخره وأنه قادم في آخر قطار يصل إلى محطة بلدتهم .

والذي يريد أن يخرج من القرية قاصدا إلى المدينة لابد
أن يمر أولا بطريق زراعي تحف به الحقول من الجانبين ، وقد
كانت الحقول في تلك الآونة مغطاة بالذرة لم يزلها أصحابها
عن الأرض .

والذي يريد أن يتصد من المحطة إلى القرية لابد له أن
يمر بطريق تحده الصحراء من جانب ، والطرف الآخر من حقول
الذرة نفسها التي تحف بطريق القرية من جانب آخر .

كان أحمد إذن مترجلا في طريقه إلى المدينة ووراءه
الجمالان ، وكان العمدة راكبا الحمار في طريقه إلى القرية
ووراءه فتحي .

وفجأة في بهيم الليل سمع العمدة عيارا ناريا ينفجر من

قريب ، فانتفض العمدة عن حماره وانتفض الحمار من تحت العمدة ، وجرى فتحي إلى الذرة يختبئ بها ، وأسرع العمدة يجر الحمار مهولاً إلى أعواد الذرة يرجوها أن تحميه . ومن قريب سمع العمدة خفيف ثوب وأقدام تقترب ، ثم ما لبث صاحب الجلباب والأقدام أن مر قريباً من العمدة وفتحي والحمار ، وقد كتم جميعهم أنفاسهم حتى عبرهم المجهول ، وقد أجابت الذرة رجاء العمدة فحمت من الأعين . وخرج صاحب الجلباب من الذرة إلى الطريق يحمل بندقيته في يده متهاً لإطلاقها عند أول بادرة ، ويطلفت يمنة ويسرة فيراه العمدة من مخبئه ، ويراه فتحي ويعرفانه . . ويخرق الدفراوى الطريق إلى الصحراء ، وما هي إلا لحظات حتى تغيبه الصحراء في جوفها ، ويصحو العمدة من ذهوله المذمور :

— فتحي ؟

— ن . ن . ن . ن . نعم . . نعم يا حضرة العمدة .

— أين بندقيتك ؟

— معي .

— وماذا تفعل بها ؟

— إنها . . إنها لا تصلح . . ينطلق منها العيار مرة ، وينحبس فيها مرات . . خشيت أن أستعملها فينتبه إلينا الدف . . الرجل فيقتلنا يا حضرة العمدة .

كان العمدة قد ألقى سؤاله وسار مخترقاً الذرة إلى طريق القرية ساحباً وراءه الحمار ، ساعياً خلفهما فتحي يلقي باعتذاره

الطويل هذا . ولم يبال العمدة من جواب فتحي شيئا ، فهو يعلم انه هو أيضا كان عند الواقعة لا يملك من الشجاعة ما يأمر به فتحي أن يضرب . سار العمدة يهرول في الذرة لاهث الأنفاس حتى بلغ الطريق ، فراح ينظر حواليه فرأى عن يساره الجميلين عائدتين طريقهما إلى القرية يحملان القطن فلم يحفل أمرهما ، وراح يجيل النظر مرة أخرى فرأى منه عن قريب جثة ملقاة ، مسارع إليها وركع عند وجه صاحبها ثم رفع رأسه إلى فتحي . — استدع الناس يا فتحي ليحملوا جثة أبى خليل ، واطلب إلى عبد الهادي أن يبلغ النيابة ، وحذار يا فتحي .. حذار أن تخبر أحدا أن الدفراوي هو القاتل .. حذار وإلا قتلتك . — وهل ترانى أجرؤ على القول يا حضرة العمدة .. ؟ وهل ترانى أجرؤ ؟ !



بلغ الدفراوي المغارة وما إن دخلها حتى عاجله الزهار : — هيه يا منصور ! — تم المطلوب . — سبع يا بنى والله سبع . — وقطع عليه كمال اندفاعه : — اهجع يا زهار .. أترانا هازلين ؟ . هل رآك أحد يا منصور ؟ — لا . — هل أنت متأكد ؟

— كل التأكيد .

— نهيا إذن إلى بيت النمرود .. هلم يا جما ... هلم
يا رجال .

وخرجت جماعة الخير من مخبئها ، وقصدت إلى بيت النمرود
دائرة حول القرية غير متخذة إليها الطريق الزراعى ،
حتى إذا بلغوا حدود القرية من عند طريق المحطة اخترقوا الذرة
إلى بيت النمرود راسا ، وظل الدفراوى ونور والزهراوى
الذرة . وخرج كمال منها إلى بيت النمرود وطرق الباب طرقة
عرفها النمرود الذى كان ينتظرهم هناك ، وما لبث الباب أن
فتح ودخل كمال ، ثم تسال الثلاثة الآخرون الواحد بعد الآخر .

وأخذ كمال مكانه من الأريكة ، وسرعان ما اشتعلت النيران
وأديرت الجوزة ، ولكن قليلا ما تدور فقد كان اليوم مليئا بالترقب ،
ويريد كل منهم أن يهجع إلى منزله ، فما يلبث كمال أن
يقول :

— سأقوم للنوم .. ألا تقومون أنتم أيضا ؟

— إى والله .. لقد وجب النوم ..

وانفضوا عن مجلسهم واتخذ كل منهم وجهته إلى بيته .
دخل الدفراوى منزله وهم أن يخلع ملابسه ، ولكنه يسمع
خارج بيته ضجيجا عاليا فلا يحفله ، ظانا أن القوم يغطون بحادث
الليلة . ولكن الضجيج يقترب فيوشك أن يوليه اهتماما ، ويتسمع
فيسمع اسمه ، فيسارع بفتح الباب يريد الهرب ولكن لات حين
مهرب ، لقد كان الضجيج قد بلغ بلب بيته وأحاط به الجنود وخفراء
القرية .

- ١٦ -

سارت سيارة المأمور بالدفراوى تحمله إلى السجن متهما
بتهمة القتل ، منكرها لهذه التهمة مبالغا فى الإنكار ، ولكن إنكاره
لم يمنع العدة أن يفرح لهذا النصر الضخم الذى أصابه ، فإن
الحوادث التى وقعت فى تلك الفترة البغيضة من الإرهاب لا بد
أن تنتهى اليوم . بل إن العدة كبير الأمل أن يعرف أيضا جماعة
الخير فردا فردا ، فهو يعتمد على المأمور أن يحمل الدفراوى على
الاعتراف .

وبهذا الفرح والامل ، وفى تفكير عميق ، وقف العدة يقيم
صلاة الفجر الحاضر فقد استمر التحقيق إلى الصباح ، وانتهى
العدة من صلاته فى شرفة الدوار وانفل إلى بيته ، فاستقبلته
زوجته التى ظلت ساهرة تنتظره وتجبب أوامره التى يرسل
بها إليها .

— هيه . . خير يا شيخ زيدان ؟

— خير إن شاء الله . . انكشفت الغمة والحمد لله .

— الحمد لله على كل شيء . . هل اعترف منصور ؟

— لا لم يعترف ، ولكن كيف له أن ينجو وقد شاهدته بعيني
أنا وفتحي ، وأثبتنا هذا فى محضر النيابة ؟

— وهنّ عثروا على السلاح ؟

— هذه هى المشكلة .. لقد فتشنا بيته وببيت صاحبه
النمرود ولكننا لم نجد شيئا ، وأرجح أن الولد له صديق فى
الصحراء أودع عنده البندقية .

— فانتبه أنت لنفسك يا شيخ زيدان .

— لقد خلصنا منهم يا شيخة .. فما أعتقد إلا هذا كان
زعيمهم ، وما أظن أن تقوم لهم قائمة بعده أبدا .

— ومن أدراك يا شيخ زيدان .. ؟ ! إننى لم أرى حياتى
عصابة كافرة مثل تلك ، فبحق درية يا شيخ وبحقى إلا ما احتطت
لنفسك .

— توكلى على الله يا حاجة .. توكلى على الله ، لقد ثبت
كلامى فى المحضر ولن تنفعهم إصابتى فى شيء .

— ومن يدري ؟؟ . هؤلاء قوم لا يعرف أحد نواياهم !! ..

— توكلى على الله .. هلم إلى النوم فإنى أحس جسمى
لا يكاد يستقيم ، وأيقظنى عند الضحى لنهشى فى جنازة أحمد ،
الله يرحمه .



صحا العمدة قبيل الضحى ، فوجد القوم ينتظرونه بالخارج
ليباركوا له هذا النصر الذى أحرزه ، وليصحبوه فى تشييع
الجنازة . قال الحاج على :

— الحمد لله يا حضرة العمدة .. غمة وانزاحت .

— الحمد لله يا حاج على ، ولو أنك كنت كثير المديح لهذه
الغمة .

— يا حضرة العمدة ؟ كنت أخشى على نفسي وعلى قوتي ..
داروا سفهائكم يا حضرة العمدة .

فصاح الشيخ رضوان في غضب تعود أن يفتعله حتى ليبدو
ساذرا من صميم مؤاده :

— دع الحديث جانبا يا حاجلي ، فما أظن النبي يحض على
النفاق .. كنت تستطيع أن تسكت على الإقلاق .

وقبل أن ينطق العمدة كان الحاج على قد شذره بنظرة
دهشة عاجبة :

— لا حول ولا قوة إلا بالله يا شيخ رضوان .. عجيبة ..

وقبل أن يجيب الشيخ رضوان سارع العمدة قائلا :

— إي والله عجيبة يا شيخ رضوان .

— أي عجيبة يا حضرة العمدة .. أي عجيبة ؟

— عجيبة ، لأنك كنت أكثر مديحا للجماعة من الحاجلي
نفسه .

— أعوذ بالله يا حضرة العمدة .. أنا ؟ !

فقال الحاج على وهو محلق في الشيخ لا يزال :

— عجيبة !

وقال العمدة :

— نعم أنت .

— أنا يا حضرة العمدة .. أنا الرجل المصلى الذي أخاف
الله وأتقى غضبه .. أنا أمدح هؤلاء القتلة السفاكين اللصوص
قاطعي الطريق .. أنا كنت أمدح فقط أنهم يقدمون للفقراء
المعونة .. كنت أذم القتل والسرقة وأمدح الكرم ومعونة الفقراء ..

— سبحانه الله يا شيخ رضوان ، ألم تكن تدرك أن إعطاء
الفقراء كان لتملئهم .. ولتجد الجماعة مبررا أمام القرية لارتكاب
ما ارتكبته ؟

— لا والله يا حضرة العمدة ، لم أكن منتبها لهذا .

فقال الحاج على وهو محلق لا يزال :

— عجيبة ؟ !

وقبل أن يتكلم أحد صعد إلى الشرفة الشيخ عبد الودود
منهوك القوى بادی الهزال شاحب الوجه مأخوذاً ، ترك عليه
الحادث آثار هلع لا يزايله ، فقام إليه العمدة :

— مرحبا بك يا شيخ عبد الودود .. الحمد لله على سلامتك .

— سلمت اليوم فقط يا حضرة العمدة .. علمت اليوم بما
كان فاحسست روحى تعود إلى جسدى هونا ، فقامت إليك
أبارك لك بهذا النصر .

وقدم الشيخ حسن مع ابنه فخرى ، وكان الشيخ حسن
يبدو وكأنه قفز من الحياة سنين عدة ، واستقبل العمدة الشيخ
حسن وابنه وفى عينيه حب لهما عميق . وما كادا يجلسان حتى
طلب العمدة إلى فخرى أن ينتقل إلى جانبه وهمس فى أذنه :

— فخرى ، أنا أريدك فى حديث خطير قد يغير مستقبلك ،
ولكن لابد لك أن تقبله .

— وما هو يا حضرة العمدة ؟

— لا .. ليس الآن .. ولكن عندما يحين الوقت ، سأتى
إليك أنا فى القاهرة وأخبرك به .
— أمرك يا حضرة العمدة ..

— ولكن لا تخبر أحدا .. لا تخبر أحدا على الإطلاق ،
اكتم هذا الحديث حتى عن أبيك .. فإن سألك فيم كان حديثي ؟
فقل له إننى كنت أريدك أن تحضر معى عند المحامين الذين سأولكلهم
ليترافعوا عن والدته أحمد أبى خليل وإخوته .

— أمرك يا حضرة العمدة ، وإن كنت أنا الآخر أريدك فى
نتىء خطير ، ولكن ليس الآن على أية حال ؛

ولما رأى الشيخ حسن أن الهمس قد طال بين فخرى
والعمدة كاد يدرك أن العمدة يحدث فخرى فى أمر درية ، ولكنه
استبعد هذا الظن فما كان يعتقد أن العمدة يحدث الفتى دونه
فى هذا الشأن . كما كان يرى أن الوقت غير مناسب ، ولكنه
لم يتعمق الفكر فى هذا الشأن فقد كان يعلم أن ابنه سيخبره
عن تفاصيل الحديث .. قال الشيخ حسن :

— أظن أن الوقت قد حان يا شيخ زيدان .

فقال الشيخ رضوان :

— نعم أظن فيها هى ذى طبله كمال تعلو مرة ثانية .

وقام الجميع إلى الجنائز يشيعونها يتقدمهم العمدة والشيخ
حسن ، تعانقت أذرعهما واعتمد كل منهما على صاحبه .



أقبل المساء على قرية السلام ، وانتظر القمير بعض الحين
ثم حبا إلى السماء واهنا ، يرى بعضهم وهنه من الصغر فساقاه
ما زالتا غصتين ، ويرى بعض آخر وهنه من الشيخوخة ومن
طول ما جاب السماوات منذ خلق السماوات ، ويراه بعض

آخر واهنا لا يدركون لماذا ولا يفكرون . ويراه الباقون طالعا
فى السماء فلا يرون وهنه ، وإنما كل شأنهم منه أن يطلع فينظروا
إليه أو لا ينظروا ، فما يعنيه فى شيء .

— إلا أن قرية السلام لم تفكر فى شيء من هذا ، فقد ذهب
الرجال إلى مأتم أحمد متفرقين وعادوا جماعات ، ثم تفرقوا
ثانية إلى بيوتهم فأغلقوا أبوابها على أنفسهم بالقصور الذاتى ،
فمع أن الطمانينة قد عاودتهم شيئا إلا أنهم لا يزالون يقفلون
الأبواب ويحكمون الرقاج ويذودون الضياء عن القرية بالواح
الضك الخليطة التى يضعونها على نوافذهم .

وحينئذ طلبت درية إلى أمها أن تخرج لتعزى والده أحمد
أبى خليل فى مصابها ، وقد كانت الأم تريد أن ترافقها ولكن
سهر الأمس وكبر السن قعدا بها فى ليلتها تلك ، فهى تقول
لابنتها :

— اتظنين أن الرجال قد انفضوا عن المأتم الآن ؟

— أظن ذلك ، فهم فى هذه الأيام يبكرون فى النوم .

— أخاف أن تذهبى وهم لا يزالون هناك فيغضب أبوك ؟

— إذا رأيت الرجال لا يزالون قاعدين مدت .

— حسنا نأذهبى إذن ولكن لا تتأخرى . خذى معك فاطمة

وعبد الهادى الخفير .

— أمرك يا أم .

وخرجت درية فى موكبها الصغير قاصدة بيت أحمد أبى
خليل ، واخترق الموكب الظلام الأزرق والسكون المطبق الذى

تعانیه القرية ، إلى أن بلغ جرن القرية حيث اتخذ كل فلاح مكانا يضع فيه روث بهائمه فى شكل كومة ليجعل منه سمادا لأرضه ، وتتقارب هذه الأكوام حتى لا يسمح الطريق بينها لغير رجل واحد أن يمر . ولا حارس ثمة على هذه الأكوام ، فكل فلاح يعرف كومه ولا يعدو أحد منهم على الآخر .

كان على الموكب أن يخترق هذه الأكوام إلى بيت احد ، فتقدم عبد الهادى وتبعته درية ففاطمة . وما إن توسط هذا الطابور أكوام السماد حتى تواب على ثلاثتهم ثلاثة أشخاص ملثمين بينما وقف رابع يرتبهم ، ويضع كل من الثلاثة إحدى يديه على أنواه كل من عبد الهادى ودرية وفاطمة ، ويضعون فى جنب كل منهم مسدسا . وتتم العملية فى ومضة عين ، ثم يقول الشخص الرقيب وهو ملثم :

— كلمة واحدة أو صوت .. تنطلق هذه المسدسات جميعا .
هيا تحركوا معنا .. سترتفع الأيدي عن أنفواكم فحذار أن يسمع لكم صوت .

ويسير الجمع اثنان يتبعان اثنين آخرين ، وفى آخر الطابور المزدوج يسير كمال .

ويخترق الموكب الطريق الزراعى المحفوف بالذرة ، ويبلغ الطريق الرئيسى الذى يتفرع إلى طريقتين أحدهما إلى المدينة والآخر إلى المحطة ، فيميلون إلى طريق المحطة ، ثم ما لبثون أن يعبروا الطريق إلى الصحراء . وما هى إلا خطوات قليلة ، حتى يبلغوا كثيبا ضخما من الرمال يدورون حوله فيطالعهم

كوخ كبير ، ويقف كمال على بابه ويقول لعبد الهادى وفاطمة :
— اذهبا انتما إلى العمدة وقولا له إن ابنته لن ترجع إليه
حتى يغير أقواله التى قالها فى المحضر .. فإيا أن يبرا منصور
أو تموت الابنة .

وتشهق فاطمة ، فيعود كمال إلى الحديث وقد غير اللثام
صوته :

— اخرسى .. اذهبى واحذرى أن يصدر عنك صوت أو كلمة
حتى تبلى العمدة . احذرى وإلا فانت تعرفين ما يمكن أن نفعله
.. هيا .

وتجر فاطمة عبد الهادى ويسيران طريقهما إلى العودة ،
بينما يدخل كمال إلى الخص فيخرج منه حصانه فيركب ويضع
درية أمامه ويركب الآخرون خيولهم وتركض بهم الخيل إلى
المغارة .

يدخل كمال درية إلى المغارة المظلمة فيضىء مصباحا ،
ويكبل درية بالحبال ويضع على منها منديلا ، ويخر إلى إخوانه
فيسأله الزهار :

— هيه .. أئنم جميعنا هنا ؟

— هل جئنت ؟ .. أما كفانا أننا لم نذهب إلى الماتم اليوم ؟ ..
لابد لكم أن تظهروا فى القرية الليلة وتناموا فى بيوتكم .

فيقول الكحلة :

— ومن يحرسها إذن ؟

فيقول كمال :

— أنا أحرسها .. فإن أحدا لن يبحث عنى . اذهبوا أنتم



وابتوا على المسدسات معكم حتى مساء الغد ، وتعلق أنت يا نور فى الصباح لتتولى حراستها .. واحضر لنا معك بعض الطعام .

— لماذا ؟ ألم تحضر وطنية طعاما ؟

— لا لم اطلب إليها أن تفعل ، لأنى لم اخبرها بعملية الليلة .

— وهو كذلك .. السلام عليكم .

وبمضى القوم بعد أن يودعوا المغارة خيولهم التى استخدموها لأول مرة ، والتى ملأهم الزهو باستخدامها . ولسوا أن كمالا خشى أن تعيقهم درية فى المسير فبيطئوا ويلحق بهم أهل القرية لما استخدموا الخيل فى ليلتهم تلك ، فقد كانت معدة للمهمات خارج القرية لا داخلها .

مضى القوم ، وجلس كمال على باب المغارة يفكر فى أمره وأمر درية .. ويتيح بجلوسه لدرية أن تسترد أنفاسه اللاهثة ونفسها الجازعة . لقد طالما تمنى أن يخلو إلى درية ، ولكنه لم يتمن أن تكون الخلوة ناتجة عن اختطاف ، وقاصدة إلى تهديد ..

قام كمال فدخل المغارة ملثما — لا يزال — فأزال عن قم درية المنديل ، ثم ابتعد عنها قليلا واتخذ لنفسه مجلسا أمامها .. وينظر إليها كمال طويلا ثم ما تلبث أن تنحدر من عينه دمعتان احست عيناه بهما حارتين ، فهما لم تعرفا هذه الدموع منذ كان طفلا لا يذكر متى دمع أو بكى . وكف كمال دمه خفية ثم قال لدرية :

— لا تخافى .

— أنا غير خائفة .. أنا مؤمنة ، وما فى علم الله كائن .

- ونعم بالله ..
- وانقطع الحديث حيناً ، ثم قال كمال بعد أن استجمع نفسه :
- من أنا ؟
- قاتل .
- سامحك الله .
- اطلب إليه أن يسامحك أنت .
- علام ؟
- ألا تعرف ؟ .. على كل ما جنيت . على النفوس التي تقتلها والقلوب التي أرعبتها ، اطلب إليه أن يسامحك — على الأقل — من أجل ما تفعله الآن بأبى المسكين حين يعلم أنني رهينة عند سفاك .
- هذا على .. أقتل الفرد في سبيل الجماعة .
- أيها السفاك .. وهل الجماعة إلا أفراد !
- لكل رأيه .
- بل إن كل إنسان يشكل منطقته على هواه .. حتى القاتل اللص السفاك ، حتى أنت تخلق لنفسك منطقاً .
- لم تجيبى .
- علام ؟
- من أنا ؟
- لقد أجبتي ، قاتل لص .
- فما اسمي ؟
- أيا يكون اسمك فإنه لن يستر اسمك الحقيقي .. قاتل
- لص .

— بل إن لى اسما .. ولى معك بالذات تاريخ طويل .

— معى أنا !!

— نعم .. منذ انت طفلة صغيرة وأنا صبى كبير .

— فأنت من البلد ؟

— منذ كنت تلعبين مع اترابك فاقف منكم بهرصد ، أناولك

الكرة إن ذهبت بعيدا ، وأقيم لكم ما تشاءون أن أقيم لتلعبوا به

وتلعبوا .

— من انت ؟

— أنا ذلك الذى كنت أكبر جماعتكم .. لا اشارككم اللعب

وإنما أخدم لكم كل لعبة تقومون بها .

— من ؟

— أنا .

ويرفع كمال اللثام عن وجهه فتفوح درية فى أعماق صمت

ذاهل حيران ، لم تقل غير كلمة واحدة : « كمال » ذاهلة مفزعة ،

غير واثقة مترددة ، تنعم النظر واهمة أنها فى حلم بغيبض .

ويقول كمال :

— نعم كمال ..

— لماذا ؟ .. لماذا فعلت بنا هذا ؟ !

— لم أقصد إليكم .. إنها فكرة قديمة حان موعدها فنفذتها .

— لماذا يا كمال ؟ !

— كنت أبحث عن مكان لى فى البلدة فلا أجد .. وكنت أطيل

النظر إلى نفسى فى المرآة فقد كنت أحس أن أحسدا لا يرانى

مطلقا ، فكنت أعزى نفسى بأن أرى أنا نفسى .. كنت لا شئ

فى قريتكم وأردت أن أصبح شيئاً . كنت قطعة من الهمل لا تلقى
حتى الإهمال ، فقد كنت أقل من أن يهملنى القوم . . أعددت
الخطّة فأصبحت على ما ترين .

— ويحك ! لقد كنت كما وصفت ، وأقسم لقد صرت إلى
شر مما كنت . . ويلك ! لقد أعددت الخطّة لتتحدّر إلى حضيض
كنت بالنسبة إليه فى القمة . . ماذا فعلت بنفسك يا كمال ؟

— صرت سيّدا .

— على عصاية .

— أصبحت آمرا لنيؤتمر بأمرى .

— لأن بيدك سلاحا .

— أصبحت غنبا .

— الأتلك لص .

— أحس نفسى قويا .

— لقد كنت أقوى .

— وفيم كانت قوتى ؟

— فى هدوء ضميرك .

— لم يكن لى ضمير . . وليس لى اليوم . . أنا لم أعرفه

يوما فأسى عليه .

— أيها المسكين تحاول أن تهرب من الأيام . . لن تستطيع .

— لقد استطعت .

— بل لن تستطيع .

— سترين .

— لا حول ولا قوة إلا بالله .

ويرتجف كمال وكأنه يسمع الحوالة لأول مرة ، ثم يرين
عليهما صمت طويل تقطعه درية :

— ولماذا اختطفتنى .. أمن أجل منصور ؟

ويرتدد كمال قبل أن يقول :

— نعم .

— ولماذا كشفت لى عن نفسك ؟

— لأنى أعلم أنك لن تشى بى ، ولأنى لا أنوى أن أضايق
العمدة بعد اليوم ، وسأقول للجماعة إنك عرفتني فأقسمت ألا
تبوحى بسرى إلا إذا أسأت إلى أبيك ، وبهذا أبعدهم عنه .

— إذن فأنت لا تنوى أن تتوب ؟ !

— أتوب عن ماذا .. أنا لن أضايق أباك فقط ومن أجلك ..
لقد أصرت على أن آخذ منه الإثارة حتى أخيف الآخرين ،
أما بعد اليوم فلن يصيبه منى شر أبدا ، وعلى كل حال فأنت
قد عرفتني ولم تعرفنى من معى ، وقد يصيبون أباك بشر إن أنت
أفشيت سرى .

— فلماذا لم ترسل إلى أبى تهدهه بأن تقتله أو تقتلنى ،
أو بأن تحرق زراعته أو بيته بدلا من أخطافى ؟ !

— الوقت يخيفنى .. أخاف ألا يستطيع منصور احتمال السجن
فيشئ بنا جميعا .

— آه !

ويعود الاثنان إلى الصمت ثانية ، ثم يقول كمال :

— هذا ما أقنعت به زملائى ، أما الحقيقة .. الحقيقة أننى
رغبت فى أن أجلس منك هذه الجلسة .. وأن أقول لك ..

— حذار .
— أتحرميننى حتى من قولها ؟ !
— واى فائدة تجنيها من قولها ؟
— أنت هنا معى .. ونحن وحدنا .. إن لم أقلها لك الآن
فممتى ؟ ..
— لن تقولها أبدا .. ولن أسمعها .. لن أسمعها حتى وإن
فلتها .

ويقف كمال وهو يقول يائسا مستخدنيا :
— أنت محقة .. أنت محقة يا ستى درية .. تصبحين بخير .
ويخرج كمال إلى باب المغارة فيجلس إلى الأرض ، وقد
التف بعباعته والتى بنظره إلى الأفق البعيد .



ومع الفجر يأتى نور ليأخذ مكان كمال ، فيمضى كمال إلى
بيته فيجد وطنية تنتظره ..
— أين كنت ؟
— وما شأنك ؟
— اختطففت درية ..
— ومن أدراك ؟
— عرفت .
— وماذا تريدننى أن أفعل ؟ . أسكت حتى يذكر الدفراوى
اسماعنا ونذهب فى الحديد .
— أمن أجل هذا اختطففتها ؟
— هل جننت ؟ .. إن لم يكن من أجل هذا فلماذا ؟

— حب قديم كان يائسا ، ولعل املا يداعبك فيه اليوم ؟
 — يا شيخخة .. وحياة والدك .. اهذا وقته ؟ !
 — فمتى الوقت ؟ .. طبعا واين انا الآن وقد قضيت ليلة
 معها فى المغارة .

— اسمعى يا وطنية .. انا يا بنتى — مهما افعل — لن ازيد
 عن كمال الذى عرفته .. كمال الذى كان حتى امس تأخر خادمتها
 أن تقدم له فضلة طعام الخدم .. كمال الذى ظل طول عمره
 خادما عندهم ، أو مستجديا على بابهم . افهمت ؟ .. افهمت ؟
 وفهمت وطنية تماما .. فهمت أن كمالا عرف هذا جميعه
 من ليلة الأمس ، وفهمت أن كمالا حين واجه درية منفردين فى
 المغارة هو السيد الأمر وهى المطيعة المنفذة ، لم يستطع كمال
 إلا أن يجد نفسه كمالا المستجدى وإلا أن يجد درية السيدة
 الأمرة .. لم يستطع كمال وهو فى مأمن من الوحدة ، وفى
 عزوة من السلاح ، إلا أن يكون كمالا الطبال فى القرية أمام درية
 بنت العبد . فهمت وطنية هذا فقد كانت تجيد الفهم .. ففى
 تقول لكمال :

— وماذا تنوى أن تفعل بها ؟
 — والله لا أدرى .. الأمر الآن بيد العبد .
 — أقتلها ؟ !
 وهب كمال جازعا :
 — أقتلها !!
 — فماذا تنوى أن تفعل ؟
 — لا أدرى .

- ١٧ -

تلقى العمدة النبأ من فاطمة وعبد الهادي ، فالتقى به في بحران من الاضطراب والذهول والحيرة والجزع والثورة .. ابنته في يد المصابة وأقواله في المحضر . لا سبيل له إلى ابنته ولا سبيل له إلى المحضر .. ماذا يفعل ؟ .. وتصيح به زوجته :

- أسرع .. أسرع إلى المركز وغير أقوالك .

ولا يجيب العمدة وقد اختلط صوت زوجته في ذهنه بخوالج قلبه ، فما يدرى أهو صوتها أم صوت من أعماقه ؟ فما يلبث أن يغفم وكأنها يحدث نفسه :

- ومن يصدقني ؟ .. لقد ثبتت أقوالى وانتهى الأمر ، إنا لله وإنا إليه راجعون .

وتعود الزوجة إلى الإلحاح ، ويظل هو ساهما مطرقا يتقلب الأمر على كل وجه له . إنه لو قبل أن يطيع زوجته ويجعل من نفسه كاذبا متعلقا بخيط واهن من الأمل ، فمن لفتحه الخفير ، ومن لهذه القرية التي عرفت جنبعيها منه ومن فتحي انهما رأيا منصورا وتعرفاه ، ومن لهذه الأقوام التي جاءت تهنته في الصباح ؟ من لدرية الآن في مكانها مع السناكين ؟

إنا لله وإنا إليه راجعون . طريق واحد الذى أمامه .. طريق واحد ليس غيره .

وظل العمدة إلى الصباح يهذى صامتا وزوجته إلى جانبه تهذى فى ضجيج .. حائر كلاهما لا يدري من أمر نفسه شيئا .. لا يتكلم العمدة — إن تكلم — إلا بقول واحد : طريق واحد ليس لى غيره .:

ويطلع الفجر فيصليه العمدة ، فيثوب إلى نفسه شيء من ثبات يكفيه ليطلع إلى الناس وليذهب إلى هذا الطريق الذى لا يعرف غيره .

قصد العمدة إلى لطيف بك .. فقد كان يعلم أنه يحتاج إليه اليوم لأن الانتخاب أصبح على الأبواب .. وقد كان يعلم أنه لن يقيله من تلك الكارثة النازلة به إلا لطيف بك . يقصد إليه رغم أنه لم يكن مواليا له فى الانتخابات وإن يكن لطيف قد أغواه مما يوقعه بمن ناصبوه العداء فى الانتخاب ، فما كان ذلك منه إلا عن أمل فى المستقبل ، وعن ثقة أن هذا العمدة بالذات وهو فى جوار بلده لا بد أن يلجأ إليه فى يوم . وكان لطيف قد أزمع فى نفسه أن يحميه إذا لجأ إليه ، فقد كانت بلدة السلام بلدة يخطب ودها عند الانتخاب ..

بلغ العمدة دار لطيف بك فى باكر الصباح فوجده يقظان ..

— وقعت من السماء فتلقنى .

— أتلغاك بروحى يا حضرة العمدة .. خير .

— بنتى .. بنتى الوحيدة .. اختطفها العصابة ، وأرسلت

تهددنى بقتلها إن أنا لم أبلغ النبأ أن ما ذكرته عن الدفراوى
كان كذبا ، وأنتى لم أره .

وفكر لطيف هنيهة ثم قال للعمدة :

— اذهب أنت إلى البلد وغدا ستكون إبتك عندك ، كنت
مسافرا الآن ولكننى سأؤجل سفرى للمساء حتى أنهى هذه
المسألة .

وراح العمدة يدعو للطيف بك ، وخرج من عنده ليس فى
نفسه أمل إلا هذا الذى القاه إليه ملجؤه الأخير فى ثقة واطمئنان .

وما إن خرج العمدة حتى نادى لطيف أحد رجاله وقال له :

— عند المغرب تذهب إلى بيت النمرود وتقول له : إن البك
يريد كمالا أن يأتى إليه الليلة . . قبل الساعة الثامنة مساء ،
لأنى مسافر بعد ذلك لأحضر قضية الغد فى مصر .
— حاضر .



هم كمال بالخروج من منزله قاصدا إلى المغارة ، وإذا
بالنمرود والزهار يدخلان ليبلغاه أن البك يطلبه .

— لابد أنه يريدنا من أجل درية .

— نعم لابد .

— هلم لنراه .

— أنذهب جميعنا ؟

— نعم . . ثم نعود إلى المغارة لنأخذ مكان نور ، وحذار أن

يتكلم أحد منكم أمام لطيف : دعوا الكلام لى وحدى فقد أصبح بالغ
الخطورة .

ويمضى جميعهم إلى البك فيجدونه منفردا فى حجرته ،
ويستقبلهم مرحبا :

— أهلا أبا كمال .. أهلا بالرجال .. كنت مسافرا الآن
فانتظرت حتى تأتوا .
ويجيب كمال :

— أهلا بك يا سعادة البك .. أطال الله عمرك وأبتاك .
— ماذا فعلت من أجل منصور .. ؟ أريد أن أوكل عنه أحسن
المحامين .

— والله يا سعادة البك شهادة العمدة سيئة للغاية ، وأخشى
الأن يستطيع المحامى أن يفعل شيئا .

— إذن فصحيح ما سمعته عن خطف بنت العمدة ؟
— وماذا تفعل يا سعادة البك .. ؟ منصور أخونا ومن
لا يحى أخاه فليس رجلا .

— ولكن العمدة رجل مسكين .
— أصابه سكين . وماله لم يكن مسكينا فى الانتخابات وأمام
النيابة .

— على كل حال يا أبا كمال أنت رجل ، ونعم الرجل .
— أبتاك الله يا بك ، وأطال عمرك .
— الانتخابات قادمة قريبا ، وأنا أريدك أن تساعدنى فيها .
— تحت أمرك جميعنا يا بك .
— لن أطلب منك إلا مسألة بسيطة .

- سر .
- بلدة السلام .
- نعطى الأوامر يا بك أن تنتخبك جميعها .
- لا .. هذا غير ممكن .. فإننا لن نستطيع أن نهدد بلدة
- بأجمعها في الانتخابات . وخاصة أنتم لم تكتشفوا عن أنفسكم
- في القرية .. وقد جعلتم فكرتكم أهم القرية أن تأخذوا من الأغنياء
- لتعطوا الفقراء ، فما شأن هذا بالانتخابات ؟
- فماذا نفعل .. ؟ نحن خدامك .
- الطريقة المثلث أن نسترضي العمدة .
- وكيف ؟ !
- نرد له ابنته عن طريقى .
- ومنصور ؟
- أكبر محامى في مصر سيتراجع عنه
- يا بك شهادة العمدة لا تنفع معها مرافعة .
- هذا شأن المحامين .
- ومن يدري ماذا سيحدث لنا من هنا حتى يوم المحاكمة ؟
- ماذا سيحدث ؟
- ألا يجوز أن يشتد الضغط على منصور فيذكر اسمائنا ؟
- منصور رجل ، ولا يمكن أن يسيء لإخوانه .
- يا بك السجن صعب لا يرحم .
- أنا واثق من منصور .
- يا بك لا نستطيع .
- أتخالفنى ؟

— العفو يا بك ؟ ولكنها مسألة حياة أو موت لنا جميعا .
 — أنسيت أن العمدة طلب إلى أن أعطيه رجلا من رجالى
 ليحاربكم فرفضت .. رفضت له طلبا يهم البلدة كلها ، أما طلبه
 الخاص بابنته فرائى أرجو أن تمكننى من الوفاء به .. إنه لجأ
 إلى ولا يرضيك أن أخيب لاجئا إلى .
 — حياتنا يا سعادة .. حياتى وحياة إخوانى هؤلاء .
 — على كل حال هذا شأنك ، ولكن اعتبر صداقتنا المنتهية
 إن أنت لم تصنع لى هذا المعروف الصغير .
 — يا بك نحن خدامك ، لا نخرج عندك أبدا .. إلا فى هذه
 المسلة .
 — أنتم أحرار .. ولكن منا أن يفعل ما بدا له .
 — نحن خدامك يا بك ، نستأذن .
 — مع السلامة .
 ويتوهم كمال فيقوم النمرود والزهار ، ويخرجون بعد أن
 يلتقوا السلام فى أدب نجم ، وفى جنود يعرفه لطيف منذ تعود
 مصاحبة أمثالهم .
 وما إن يبتعد ثلاثتهم عن دار لطيف حتى يدعو لطيف إليه
 سليمان النطل كبير رجاله بعد موت النمرود ، فيقول له :
 — تذهب أنت وعباس ونهمى الليلة إلى قرية السلام
 وتأخذون إليها الطريق الذى يدور حول بلدة الفريحة ..
 اركبوا السيارة الجيب وأخفوها قبل بلدة السلام ، وانتظروا
 الثلاثة الذين خرجوا الآن من عندى .. اقتلوهم الثلاثة الليلة ..
 حين طلع عليهم الصباح وهم أحياء فلا ترونى وجوهكم ، لأنهم

إن عاثوا فسيقتلوننى .. أفهم ؟ وحذار أن تسيروا وراءهم
فى الطريق التى ذهبوا منها فتقتلوهم فى حدود بلدنا .. انتظروهم
عند بلدهم واقتلوهم .. أنا مسافر الآن إلى مصر .. أترا فى
جرائد الصباح عن مقتل الثلاثة .. أفهم .. ؟؟
وهل يفهم سليمان إلا هذا !!



خلا كمال والزهار والنمرود بالطريق ، وكانوا يسبرون
فى طريق يحفه من جانب مصرف جاف ليس فى جوفه إلا أوшал
ماء وكثير طين ، ومن الجانب الآخر حقول لطيف وقد رفعت عنها
الذرة ، وذهب كمال فنظر فى المصرف خشية أن يكون فيه أحسد
جالسا ، ونفض المكان جميعه بعينه ثم قال لرفيقه :

— ميلا بنا نجلس فى جرف هذا المصرف لأحدثكم فى أمر
خطير .

وجلس ثلاثتهم على جرف المصرف وقد التى رفيقا كمال إليه
بأذانهما المصغية .

— لقد عملت منذ أول يوم تكونت فيه الجماعة على أن اكسب
ود لطيف ، فهو لا يعلم بأمر جماعة مثلنا تتكون قريبا منه إلا حاول
أن يضربها إليه أو يقضى عليها .

فقال النمرود :

— نعم .. هذا صحيح .

فقال كمال :

— أما هذا الذى طلب إلينا أن نعمله الليلة فهو الفناء الاكيد
لنا جميعا .. فلولا أن منصورا انتظر فى السجن حتى المحاكمة
لأغشى سرنا ، وخاصة إذا عرف أننا اختطفنا بنت العمدة ورجعناها
دون أن يغير العمدة شهادته .

فقال الزهار :

— نعم .. أنت محق .. ولو كنت طاوعته لقلنا نحن لا .

فقال كمال :

— فاعلموا إذن أننا إذا لم نقتل لطيفا فإنه سيقتلنا لا محالة ..
فأنتم تعلمون أن أمثالنا فى هذه الناحية إما أن يكونوا أصدقاءه
أو يكونوا فى القبور .

فجزع النمرود قائلا :

— نقتل لطيفا ؟

وقال كمال فى ثبات :

— وأى فرق بين لطيف وصلاح وأحمد ؟ !! الرصاصة التى
قتلت صلاحا أو أحمد تستطيع أن تقتل لطيفا . إنه الوحيد
الذى يعرف أشخاصنا ، وقد تركناه غاضبا فإين لم نقتله فمسيرنا
إلى القتل على يديه أو القتل على يدى الحكومة التى سيشى بنا
عندها .

فقال النمرود :

— ولكن الدفراوى هو الذى قتل صلاحا وأحمد ، ومن لذا
الآن بالدفراوى ؟

فقال كمال :

— معنا من هو أمهر من الدفراوى .

ونهم الزهار انه يقصد إليه ، وخيل للنمرود أنه المقصود .
وتذكر فى تلك الآونة هذه الإشاعة التى كان قد أطلقها من أنه
قتل زوجته الهاربة .

ويسأل النمرود فى تردد :

— من .. ؟ من تقصد ؟

ويكون الزهار سارحا فى هذا الأمر الذى يوشك أن يلقي
إليه .. فهو لم يقتل قبل اليوم وإن كان قد تمنى أن تتاح له
الفرصة .. نعم إنه أمهر فى إصابة الهدف من الدفراوى ، ولكن
الدفراوى مرن على قتل الناس ، أما هو ..

ويسمع الزهار كمالا وهو يقول فى صوت ملء بالثقة :

— الزهار يا أخى .. الزهار الذى تعلم إصابة الهدف فى
العسكرية . ومعنا مسدسات لا تخيب أبدا .

ويقول النمرود :

— ما رأيك يا زهار ؟ !

ويقول الزهار فى وجبة وتفكير :

— أمركم .. كما ترون .

ويقول كمال :

— نستلقى هنا على بطوننا ، فإذا جاءت سيارة لطيف فعليك
يا زهار أن تصوب إلى الزجاج الخلفى للسيارة ، فأمامه تماما

سيكون رأس لطيف فهو يجلس فى الوسط . اما انت وانا
 با نمرود فسنضرب فى جوانب السيارة لنقتل من معه .. وسنكون
 نحن مختفين بينما سيكونون جميعهم ظاهرين لنا ..
 — امرك .

وما هى إلا دقائق حتى ظهر نور السيارة قادما من بعيد ،
 فينام ثلاثتهم على بطونهم وقد أخفاهم جرف المصرف عن نور
 السيارة .. وعبرتهم السيارة ولكن لم تكد حتى انطلق مسدس
 الزهار فأصاب الزجاج حيث أراد كمال ، وانطلق مسدسا كمال
 والنمرود فأصاب كمال جانب السيارة من أعلى وأصاب النمرود
 عجلة السيارة فنامت .

وحاول السائق أن يزيد سرعة السيارة ولكن السيارة قفزت
 منه قفزة ثم توقف محركها ، ففتحت أبواب السيارة جميعا
 ونزل منها أربعة أنفار .. اما السائق ومن كان خلفه فقد نزلا
 إلى ناحية الحقل فتسترا بالسيارة وظلا يتدحرجان نائمين حتى
 بلغا الحقل ففاصا فى جدول من الماء يفصل بين الحقل والطريق .
 اما من كان إلى جانب السائق ومن كان خلفه فقد تدحرجا من
 السيارة إلى ناحية الكمين ، وحاولا أن يدخلوا تحت السيارة
 فلم تتسع لهما فتدحرجا فى سرعة مجنونة إلى جرف المصرف ،
 وراح كمال يطلق عليهما الرصاص وهما فى طريقيهما إلى المصرف
 فلم يصيبهما ، بينما راح النمرود والزهار يصويان نحو السيارة
 حيث امرهما كمال أن يصوبا ، وقد أصبحت أيديهما الضاربة منفصلة

كل الانفصال عن عقليهما ، فكل ما يدريان من أمر نفسيهما أنهما
أمر أن يضربا مواضع معينة من السيارة فهما يصوبان إلى حيث
أمر بغير تفكير ، وفي إصرار ذاهل مجنون .

أصبح رجلا لطيف في الجرف مع الكمين ، فصوب إليهما
كمال مسدسه ، ولكن الاضطراب كان قد أخذ يسيطر عليه ،
وصوب الرجلان بندقيتهما اللتين كانتا معلقتين على كتفيهما
إلى الكمين ، وما هي إلا طلقات قلائل حتى كان الكمين كله
في الطين قتيلا . . كمال والزهار والنمرود .

- ١٨ -

اشرق الصباح على قرية السلام ، وتهيأ العمدة يريد الذهاب
إلى لطيف فإذا بالأنباء تأتيه . . لقد أصيب لطيف ومات الزهار
والنمرود . . وكمال والكمال الطيبان ! ؟ نعم كمال الطيبان !

إذن فذلك هي العصابة . . فأين ابنتي ؟ . . لم يكن الأمر
محتاجا لكبير ذكاء . لم يبق من منتدى بيت النمرود إلا نور . .
يقصدون إلى بيته فيجدونه خاليا ، فيهمون أن يتركوه فإذا نور
قادم ليبحث عن رفاهه الذين أخلفوا معه موعدهم وتركوه جائعا
هو وحبيسته ، ويراها القوم قادمة من وراء القرية من خلال أعواد
الذرة فيمسكون به . . ويتداعى الرجل ، وتعود درية إلى بيت
أبيها .



لم يكن فخرى قد تركت القرية منذ قدم إليها فقد شغلته الحوادث أن يتركها ، وقد آن له الأوان أن يعود إلى دراسته ، ولكن عليه رسالة لابد أن يبلغها العمدة قبل أن يبرح القرية . هي رسالة أجمع عليها المثقنون في القرية ولم يجدوا غير فخرى ليؤديها عنهم . . هي أمه وأملهم . . وما كان ليمضى عن القرية قبل أن يحقق أمه وأمل إخوانه .

ذهب فخرى إلى العمدة فوجد الدوار مزدحماً يغص بالمهنيين بعودة درية ، وبعودة السلام إلى قرية السلام .
ويميل فخرى إلى أذن أبيه :

— أبى هلا استأذنت لنا العمدة أن نخلو إليه بضع لحظات ؟

ويقول الشيخ حسن في ابتسامة تكاد تشرق ، لولا ما في القلب من حرقة على موت ابنه الأكبر :

— نعم يا ابنى . . أظن الوقت مناسباً .

— مناسب تماماً يا أبى . . افعل لا عذمتك

ويميل الشيخ حسن على أذن العمدة فيقوم ويقوم من ورائه فخرى والشيخ حسن ، ويفهم إخوان فخرى ما بسبيله أن يقال في هذه الخلوة ، ويحاول آخرون أن يخلقوا في أذهانهم أسباباً أخرى ، ويحسد كل منهم نفسه على ذكائه المتوقد واستنتاجه الصائب .

وفي الغرفة التي شهدت رفض العمدة لطلب الشيخ حسن يقول العمدة بعد أن استقر بهم المجلس :

— نعم يا فخرى .. هى لك .. هى لك يا ابنى دون أن تطلب .
ولكن فخرى يقول كلاما آخر يذهل له أبوه ، فما كان هذا
ما توقعه ، ويذهل له العمدة ايضا .. يقول فخرى :

— أبناك الله وأبقاها لك .. يا حضرة العمدة ، ولكن ليس
هذا ما أردتك فيه .

— فغيم إذن يا ابنى ؟

— لقد خرجت القرية من غمرة قاتلة فقدنا فيها ارواحا
عزيزة علينا ، وفقدنا فيها كرامة هى أغلى عندنا من الأرواح ،
وفقدنا أموالا هى أهون ما فقدنا .. يا حضرة العمدة أنت وحدك
المسئول عن كل هذا .. نريد منك نحن أهل قرية السلام أن
تقسم يميناً على المصحف أمام الله ، أن يكون الحق شأناك منذ
اليوم ، فلا ظلم ، ولا ميل ، ولا رشوة ..

سمع العمدة هذا الكلام فارتسمت على وجهه ابتسامة حلوة ،
وصاح الشيخ حسن :

— أخرس يا ولد .. امثل هذا يقا ...

فقاطعه العمدة فى لطف :

— نعم يا شيخ حسن ، بل لا يقال إلا هذا .. اسمع
يا فخرى .. بماذا همست فى أذنك آخر يوم كنت فيه هنا ؟

فتلجلج فخرى ببعض الشئ ، فقال العمدة :

— قل ...

فقال فخرى :

— قلت لى إنك تريدنى فى أمر جليل قد يغير حياتى جميعها .

غازداد ذهول الشيخ حسن ، وقال العمدة :

— هذا ما أرحتك فيه يا ابنى ..

— ماذا ؟

— أنا لن أقسم على شىء يا فخرى ، ولن أكون العمدة بعد اليوم أبدا .. أنا مسافر إلى مصر ، وسأجعل الحاج إبراهيم الحسينى نائب عمدة بدلا منى حتى يتولى الأمر العمدة الذى اخترته والذى سيحكم البلدة بما يرضى الله فيقيم فيها العدل ، ويمنع عنها الكارثة ويهيئ لها الخير .. سيكون الحاج إبراهيم نائبا عن العمدة الجديد الذى اخترته ، حتى يتم العمدة تعليمه فقد اخترته من ذوى التعليم العالى ..

فقال فخرى وهو لا يصدق ما يسمع ، يكاد يعرف من يعنيه العمدة ولكن لا يستطيع الوثوق :

— من .. من ذلك العمدة ؟

— أنت .. أنت .. يا فخرى .

« تمت »

مكتبة مصر
٣ شارع كاسر حديد - البجالة



الثنى ٢٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه